«شهادة على قوة الكلمات على الصفحة - للتهدئة والتنوير والتدمير»
«أمريكان بوك ريفيو»

ياسوشي إينويه

بندقية صيد

رواية

مكتبة ياسمين

ياسوشي إينويه

بندقية صيد

ترجمة

ميسرة عفيفي

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى: ٢٠٢٢
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٢

العنوان الأصلي: 猟銃 (Ryōjū)
Copyright © ١٩٤٩, The Heirs of Yashushi Inoue
All rights reserved

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
حقوق الترجمة © ميسرة عفيفي
تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

إينويه، ياسوشي.
بندقية صيد: نوفيلا / ياسوشي إينويه؛ ترجمها من اليابانية ميسرة عفيفي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٢.
١١٢ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٤٣٧٨٦
١- القصص اليابانية.
أ- عفيفي، ميسرة (مترجم).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٨٢٨٥ / ٢٠٢١
٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١
تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

نشرتُ قصيدة بعنوان «بندقية صيد» في أحدث عدد من مجلة «صديق الصيد»، وهي مجلة قليلة الصفحات تصدر عن جمعية صيادي اليابان.

قَولي هذا قد يُظهرني كأنني أهتم قليلًا أو كثيرًا بالصيد، لكنني في الأصل تربيت على يد أم تكره إزهاق الأرواح لأقصى درجة، ولم يسبق لي أن أمسكت مجرد بندقية هواء. بل تفسير الأمر أن رئيس تحرير مجلة «صديق الصيد» كان زميلًا لي في المدرسة الثانوية، ولأنني مع كبر سني هذا ما زلت أكتب شعرًا على طريقتي الخاصة، وأشترك في المجلة الشعرية، ولكي يعبر عن أسفه لفترة الانقطاع في علاقتنا، طلب مني، ربما في لحظة طيش منه، أن أكتب قصيدة لمجلته. على أي حال هي مجلة متخصصة في أمر لا يعنيني مطلقًا، وكان طلبه أن أكتب شيئًا له علاقة بالصيد أو تقريرًا عنه، وكان من الطبيعي أن أرفض العرض من دون أي قدر من التفكير، لكن تصادف وقتها أنني، لسبب عرَض لي فجأة، كنتُ أفكر في كتابة قصيدة عن العلاقة بين بندقية الصيد ووحدة الإنسان،

لذا رأيت أن تلك المجلة هي أفضل مكان لنشر تلك القصيدة. وهكذا، في ليلة من أواخر شهر نوفمبر وقد بدأ الجو أخيرًا يعطي انطباعًا بالبرودة، جلستُ إلى مكتبي بعد الساعة الثانية عشرة بقليل، وأنهيت قصيدة من شعر النثر بطريقتي الخاصة في النظم، وأرسلتها في اليوم التالي إلى إدارة تحرير مجلة «صديق الصيد».

كان عنوان تلك القصيدة النثرية «بندقية صيد»، ولأن لها علاقة بما سأكتبه فيما يلي قررتُ أن أذكرها هنا:

رجل بغليون بحارة كبير في فمه،
يتقدمه كلب «سيتر»، يطأ بحذائه
الطويل صقيع الأرض، صاعدًا ببطء
طريق جبل أماغي في بداية الشتاء وهو
يفرق بيده أحراج الجبل. يتمنطق حزام
طلقات به خمس وعشرون طلقة،
ويرتدي معطفًا من الجلد بُنِّي اللون،
وفوق المعطف بندقية «تشرشل» ذات
سَبَطانة ثنائية، تُرى ما الذي يُحتم عليه
أن يتسلح ـ بهذا البرود ـ بسلاح معدني
أبيض لامع قاتل للأرواح الحية؟ لسبب لا
أعلمه، انجذبتُ بقوة إلى ظهر الصياد
طويل القامة بعد أن مشى.

وبعدها، كثيرًا ما تمنيتُ وأنا في محطات

المدن أو في أماكن اللهو الليلية: آهٍ لو
أستطيع أن أسير مثل ذلك الرجل. بهدوءٍ
وبطءٍ وبرود! من المؤكد أن صورة ظهر
ذلك الرجل داخل جفوني في ذلك
الوقت، لم تكن مناظر جبل أماغي البارد
في بدايات الشتاء، بل منظر ضفاف نهر
أبيض مهجور تمامًا. وبندقية صيد ذات
لمعة مصقولة، تُلقي بثقلها على جسد
وروح رجل وحيد في منتصف العمر
كأنها تتغلغل فيه، بندقية تشع جمالًا
عجيبًا داميًا، لا تُظهره مطلقًا
للأرواح الحية لمَّا تستهدفها.

وصلَت إليَّ من صديقي نسخة من عدد المجلة الذي نُشرت فيه تلك القصيدة، وعندما قلبت صفحاتها انتبهتُ، لأول مرة، لتهوري، فمع أن عنوان القصيدة «بندقية صيد» يبدو معقولًا، لكن القصيدة نفسها لا تلائم هذه المجلة، فثمة تنافر واضح مع الكلمات المتناثرة في المجلة هنا وهناك من نوع «أخلاق الصيد»، أو «الروح الرياضية»، أو «هواية مفيدة للصحة». لذا بدت الصفحة التي نُشرت فيها قصيدتي فقط كأنها مستوطنة قائمة بذاتها، تصنع منطقة منعزلة وذات طبيعة منفردة تمامًا. ولا داعي للقول إن ما ضمَّنْته في قصيدتي تلك هو الصفات

الجوهرية التي تحملها البندقية بناء على حدسي الشعري، وإن تجاوز ذلك الحقيقة فهو، على الأقل، ما نويت أن أضمنه القصيدة، وأنا أعتز بالمحتوى ولا أشعر بأي قدر من الخزي. إن نُشرت تلك القصيدة في مجلة أخرى، بالطبع لن تكون هناك أي مشكلة، ولكن لأنها مجلة تصدُر من جمعية صيادي اليابان، التي جعلت مهمتها الإعلان عن أن الصيد الهواية الأكثر رحابة للصدر وإفادة للصحة، فإن في وسط ذلك سيُنظر قليلًا أو كثيرًا إلى رؤيتي الشخصية للصيد على أنها هرطقة كان يجب عدم نشرها. وعندما انتبهتُ لذلك الأمر، أدركتُ متأخرًا الارتباك الذي ربما أصاب صديقي عندما أمسك بيده قصيدتي في البداية، بل على الأرجح أنه وجد حيرة وترددًا غير قليلين في نشرها، وتخيلت من إقدامه على نشرها، على الرغم من ذلك، مراعاتَه النفسية التفصيلية لي كصديق، وأحسستُ وقتها بالغم. ثم خطر لي أنني ربما تصل إليَّ رسالة اعتراض واحدة على الأقل من أحد أعضاء جمعية صيادي اليابان، ولكن كان ذلك مجرد خوف من خيال، لأنه مهما مر من وقت لم تأتِ ولو حتى بطاقة بريدية بهذا المعنى. لحسن الحظ أو لسوئه قابل الصيادون في طول اليابان وعرضها قصيدتي

بالصمت والتجاهل. أو إن شئنا الدقة، ربما لم يقرأها أحد. ثم بعد مرور شهرين تقريبًا، وكنتُ قد نسيت الأمر برُمته، وصلت إليَّ رسالة مسجلة بعلم الوصول من شخص مجهول لي تمامًا، يُدعى «جوسكيه ميسوغي».

سبق لي أن قرأت وصف مؤرِّخ من العصور المتأخرة يصف الحروف الأثرية المنقوشة على جبال تايشان بأنها «تشبه تألق أشعة الشمس البيضاء بعد رحيل العاصفة». وإن بالغت في القول فقد كان ذلك بحق هو أدق وصف لحروف السيد جوسكيه ميسوغي الظاهرة على الظرف الأبيض الكبير المصنوع من الورق الياباني التقليدي: «تألق أشعة الشمس البيضاء بعد رحيل العاصفة». ولأن تلك النقوش التاريخية قد اندثرت بالفعل ولم يتبقَّ منها حاليًّا نسخ مصورة، فما من وسيلة إلا التخيل لمعرفة إلى أي مدى كانت الحروف بخط جميل وأسلوب رشيق. ومن نظرة سريعة إلى كتابة ميسوغي التي كُتبت بخط كبير فكادت تشذ عن إطار الظرف، أجد أن لها أسلوبًا أنيقًا وجميلًا يعطي إحساسًا بالفخامة والنبالة، ومع ذلك إذ تأملتُها لبعض الوقت شعرتُ بأن شكل كل حرف على حدة يعطي شعورًا بالعدمية، فذكَّرني فجأة بوصف

المؤرخ لكتابات نقوش جبل تايشان الحجرية. لقد أغرق ريشته بالحبر وأمسك بالظرف في يده اليسرى، وانتهى من الكتابة على عجالة بجرة واحدة من الريشة. وتُظهر جرة الريشة تلك برودًا وعدم اهتمام، وملامح غير محددة تختلف عن مجرد نقص في الحبر. بقول آخر، لم تكن جرة تلك الريشة تنُم من البداية عن متعة الكتابة، بل كانت تعطي انطباعًا بـ«الأنا» التي يتميز بها إنسان العصر الحديث، ولكن من دون فظاظة الخطاطين المحترفين وتكلُّفهم.

في كل الأحوال، أحسست من الفخامة المفرطة لتلك الرسالة، في صندوق البريد الخشبي المتواضع الخاص ببيتي، أنها ليست في مكان يليق بها. وعندما فضضت الظرف، وجدت ورقة مصنوعة من الأرز بطول مترين تقريبًا، وأجرى فيها ريشته بالطريقة الحرة نفسها بحروف كبيرة لا تتعدى الخمس أو الست كلمات في كل سطر. بدأ الرسالة بقوله:

> إنني شخص مهتم إلى حد ما بهواية الصيد، وفي الفترة الماضية سنحت لي الفرصة مصادفة أن أقرأ قصيدتك «بندقية صيد» التي نشرتَها في مجلة «صديق الصيد». خُلقتُ بطبيعة فظَّة، وفي الأصل ليست لي أي علاقة بجماليات الشعر. وإن تحدثتُ بصراحة،

الطويلة وجسدي النحيل الذي أخجل منه. إنني حقًّا أشعر بمنتهى الخجل والحياء من أن يسترعي انتباهك كلبي المنقط بالأبيض والأسود من نوع «سيتر» المدرَّب على صيد طيور التَّدْرُج، وبندقية «تشرشل» التي أخذتُها من مُعلمي صاحب الفضل عليَّ في لندن، بل استرعى انتباهك كذلك غليوني المحبب إليَّ. وأشعر فوق ذلك بالفخر وفي الوقت نفسه بالحياء من أن يتطابق شِعرك مع مشاعري القلبية وقتها، البعيدة كل البعد عن الاستنارة والتي أخجل منها، مما جعلني أنبهر الآن، بعد فوات الأوان، انبهارًا عظيمًا من البصيرة الفذة والطبيعة المتفرِّدة للشعراء.

قرأتُ ذلك القدر من الرسالة، وحاولت أن أستعيد في ذاكرتي من جديد صورة ذلك الصياد الذي مر بجانبي فجأة في الطريق الضيِّق وسط غابات الأرْز في أثناء تنزهي الصباحي قبل خمسة أشهر تقريبًا، في تجمُّع قروي صغير للينابيع الساخنة يقع عند سفح جبل أماغي بإقليم إيزو مثلما قال، ولكنني لم أستطع أن أتذكر شيئًا بوضوح غير الانطباع الغامض الذي شد انتباهي لظهر ذلك الصياد الذي يوحي بالوحدة بشكل مُخيف. وبخلاف رجل مهذب طويل القامة في منتصف العمر، لم تظهر في ذاكرتي صورة واضحة لمظهره

ولا عمره، وبالتأكيد لم تظهر له أي صفات معنوية.

في الأصل لم أكن أراقبه بانتباه خاص، مجرد أن مر بجانبي رجل مهذب يحمل على كتفه بندقية صيد، قادمًا من الجهة المقابلة للطريق، ويختلف عن باقي الصيادين بأنه يضع في فمه غليونًا، وأعطتني البيئة المحيطة به انطباعًا أنه يفكر في شيء ما تفكيرًا عميقًا، وسط هواء الصباح البارد في بدايات الشتاء. ولأن ذلك برز بروزًا واضحًا ومتغلغلًا بشدة في عينَي، التفتُّ وقتها من دون وعي إلى الخلف، ونظرتُ في اتجاهه بعد أن مر بجانبي، وعندها رأيته ينحرف عن الطريق الضيق الذي جئت منه، ويدخل في طريق مؤدٍّ إلى الجبل وممتلئ بالأشجار والأحراج البرية، ويمشي ببطء وهو يطأ الأرض خطوة فخطوة كأنه يحترس كيلا ينزلق حذاؤه الطويل، ويتسلق تلة شديدة الوعورة. وبعد أن بقيت أنظر إليه هكذا لفترة، شعرتُ لسبب مجهول، كما سبق أن كتبت في قصيدة «بندقية صيد»، بأن ذلك الظهر انعكس في ذهني كصورة للوحدة الشديدة. وقتها كنتُ أعلم أن الكلب الذي يرافق ذلك الصياد هو كلب صيد من نوع «سيتر» الرائع، ولكن لم يكن ثمَّة افتراض لأن

كانت هذه المرة الأولى التي أقرأ فيها الشعر، فلم أقرأ قبل ذلك أو بعده أي شيء يمكن أن يُطلق عليه «شعرًا». وربما كانت هذه وقاحة مني، ولكنني أسمع اسمك لأول مرة، إلا أنني عندما قرأت قصيدة «بندقية صيد» تأثرتُ بشدة لم أعهدها منذ فترة.

في البداية، عندما مرت عيناي سريعًا على تلك الفقرة، تذكرتُ قصيدة النثر «بندقية صيد» التي كنتُ على وشك أن أنساها، وقلتُ لنفسي: أخيرًا وصلت إليَّ رسالة اعتراض من أحد محبي الصيد، بل يبدو شخصًا له قدر غير قليل. فشعرت ببعض التوتر النفسي للحظة، ولكن في أثناء متابعة القراءة أدركتُ أن محتوى الرسالة يختلف تمامًا عمَّا توقعتُه. كان المكتوب في تلك الرسالة أمرًا مفاجئًا تمامًا. استعمل جوسكيه ميسوغي كلمات مؤدبة، لا تفقد اللباقة من البداية إلى النهاية، ولكنها من جهة أخرى تحافظ على نوع من الحياد والبرود في جمل مُنسَّقة ومرتبة بعناية شديدة، مثل صنيع ريشته في الخطوط.

ما رأيك إن تخيَّلت أن الشخص الذي تتحدث عنه قصيدة «بندقية صيد» هو على الأرجح هذا الذي يخاطبك؟ أعتقد أنك رأيتني في مكان ما من القرية الجبلية بأماغي، من الخلف، بقامتي

أملك العين التي تتعرف على نوع بندقية الصيد التي يحملها على كتفه، إذ إنني بعيد كل البُعد عن أي علاقة بالصيد. ولقد عرفت بعد ذلك، وأنا أبحث في إحدى الليالي من أجل كتابة القصيدة النثرية «بندقية صيد»، أن أفضل أنواع بنادق الصيد هو إما «ريتشارد» وإما «تشرشل»، وجعلت الصياد في قصيدتي يحمل على كتفه بندقية بريطانية فاخرة على مسؤوليتي الشخصية تمامًا، وكان من المصادفة البحتة أن يتوافق ذلك مع ما كان يحمله جوسكيه ميسوغي في الواقع. وهكذا، فبظهور بطل قصيدة «بندقية صيد» ليعلن عن نفسه، ويقول لي إنه هو ذلك الشخص، ليس أمامي سوى أن أقوله له: «حقًّا؟!» وينتهي الأمر، وتظل هويَّة السيد جوسكيه ميسوغي الفكرية مجهولة لي تمامًا.

ولكن السيد جوسكيه ميسوغي أكمل رسالته بما يلي:

> ربما يعتريك بعض الريب فيما سأقوله لك فجأة، ولكنني أحمل الآن ثلاث رسائل موجَّهة إليَّ. كنت أنوي أن أتخلص منها بحرقها لِتَوِّي، ولكن، بعد أن قرأتُ قصيدتك وتعرفتُ على وجود شاعر مثلك، نبعَت داخلي فجأة الرغبة في أن تقرأ هذه الرسائل. أعتذر إليك اعتذارًا شديدًا لأنني سأقلق راحتك، ولكنني

سأرسل إليك تلك الرسائل الثلاث في مرة غير هذه، وأرجو منك أن تقرأها في وقت فراغك. ليس هناك هدف آخر بخلاف أنني أريد منك أن تقرأها. أريد منك أنت، الذي اختلست النظر إليَّ كإنسان، أن تتعرف على كُنه ما وصفتَه بـ«بضفاف نهر أبيض». إن الإنسان كائن أحمق، لذا فهو يطمع دائمًا في أن يفهمه أحد ما. ولم يسبق لي قَطُّ أن شعرت بتلك الرغبة حتى الآن، ولكنني عندما علمت بوجودك أنت، يا مَن أبديت اهتمامًا خاصًّا بشخصيتي الإنسانية، شعرت فجأة بالرغبة في أن تعرف كل شيء عني. بعد أن تنتهي من قراءة تلك الرسائل الثلاث، لا مانع من أن تكون بديلي في إحراقها كلها. أعتقد أن الهيئة التي رأيتني عليها في إيزو كانت بعد قراءتي لتلك الرسائل الثلاث مباشرة. حسنًا، أرجو منك أن تسمح لي بإضافة جملة واحدة، وهي أن اهتمامي برياضة الصيد بدأ في الأصل منذ عدة سنوات، وخلافًا لما أنا عليه الآن من وحدة تامة بلا أهل ولا ونيس، كانت تلك الأيام مزدهرة في حياتي العامة والخاصة بلا أي إخفاق، وقد بدت بندقية الصيد وقتها شيئًا لا بديل عن وضعه فوق كتفي على الدوام.

بعد أن قرأت تلك الرسالة بيومين، وصلت إليَّ ثلاث رسائل، وكان اسم المرسل عليها، مثل الرسالة السابقة، «جوسكيه ميسوغي من نُزل

ينابيع إيزو». كانت عبارة عن رسائل وجهتْها إلى ميسوغي ثلاث نساء، وبعد أن قرأت تلك الرسائل الثلاث... كلَّا لنؤجل الآن كتابة انطباعي بعد قراءتي تلك الرسائل. أريد أن أكتب محتوى الرسائل الثلاث هنا، ولكن قبل ذلك كلمة أخيرة؛ أعتقد أن ذلك الشخص الذي يُسمى «جوسكيه ميسوغي» رجل له مكانة كبيرة في المجتمع، ولذا بحثتُ عنه في كل الدوريات والحوليات التي تُعرِّف بالمشاهير وذوي المناصب في المجتمع، لكنني لم أستطِع العثور على اسمه بتاتًا، لذا يجب أن أضيف أن ذلك الاسم على الأرجح اسم مستعار استخدمه خصوصًا من أجلي. وأيضًا عندما نسختُ الرسائل الثلاث، عندما كنتُ أظن ضمن المواضع الكثيرة التي مُحيت بالسواد أن ذلك هو اسمه، كنت أكتب من نفسي في ذلك الموضع اسم «جوسكيه ميسوغي»؛ أما الأسماء الأخرى الواردة في الرسائل الثلاث فقد أعطيتُ لها جميعًا أسماء وهمية.

رسالة شوكو

عمي، عمي جوسكيه،

لقد مرت ثلاثة أسابيع سريعًا منذ وفاة أمي، وانقطعتْ زيارات المعزين لبيتنا منذ ليلة أمس، وبات البيت فجأة صامتًا صمتًا مريعًا، فأدركتُ أن أمي لم يعد لها وجود في هذا العالم، أخيرًا تغلغل في قلبي ذلك الإحساس الموحش بالوحدة وبات واقعًا. من المؤكد أنك يا عمي في منتهى الإجهاد، فلقد عملت بدلًا مني كل ما يتعلَّق بالجنازة، من إعلام الأقارب إلى طلب وجبات العشاء في الليلة الأولى. وفوق ذلك ذهبتَ مرات عديدة إلى مخفر الشرطة للتحدث معهم نيابة عني لأن وفاة أمي كانت كما تعلم، ولا أدري كيف أشكرك على كل ذلك. ثم بعدها مباشرة كان عليك الذهاب إلى طوكيو في عمل من أجل شركتك، لذا أتمنى من كل قلبي ألا تظهر عليك أعراض الإجهاد دفعة واحدة.

ولكن بناء على جدول مواعيدك عندما رحلتَ، فيُفترض أنك أنهيت عملك في طوكيو بالفعل، وأتخيل أنك الآن تشاهد منظر الغابات البرية الجميلة في إيزو، الذي أعرفه أنا أيضًا،

والذي يشبه لوحة على خزف سيتو الشهير، مشرقة وجميلة في جانب وباردة وكئيبة في جانب آخر، لذلك أمسكتُ بالقلم لأكتب هذه الرسالة على أمل أن تقرأها في أثناء إقامتك في إيزو.

كنتُ أريد يا عمي أن يكون للرسالة محتوى يجعلك، بعد أن تقرأها، تضع الغليون في فمك والرياح تهب عليك بمشاعر مرحة، ولكنني لا أستطيع ذلك مهما حاولت. لقد أهدرتُ عديدًا من أوراق الرسائل سُدى منذ قليل لأنني لا أستطيع كتابة ما سأكتبه لك لاحقًا. لم تكن تلك نيتي ولا كان ذلك قصدي. كنتُ أريد كتابة مشاعري التي أشعر بها الآن بكل تلقائية وصراحة، ثم أرجو منك أن تتفهَّم تلك المشاعر، لذا تدرَّبت مرات ومرات على كتابة هذه الرسالة، وأنا أفكر في طريقة منطقية للكتابة، ولكن عندما أُمسك القلم للكتابة فعلًا، تتزاحم الأفكار التي أريد الكتابة لك عنها كلها دفعة واحدة. كلَّا... هذا أيضًا غير صحيح! في الحقيقة، مشاعر الحزن تلاحقني من جميع الجهات كأمواج البحر البيضاء التي تهاجم سقيفة في يوم ريح عاتية، ما يجعلني أشعر بفوضى وارتباك، لكنني مع ذلك سأكتب ما أريد.

* * *

هل أقول لك يا عمي؟ إنني أعرف! أعرف ما بينك وبين أمي! أعرف كل شيء! عرفت ذلك في اليوم السابق لوفاة أمي، عندما قرأتُ يومياتها خلسة!

يا لها من معاناة شديدة عندما يجب أن أنطق ذلك في كلمات!

ومهما اجتهدتُ وصِغتُ ذلك في جملة واحدة أظن أنه سيصعب عليَّ النطق بها بلساني. لقد استطعتُ قولها لأنها كتابة في رسالة. ليس لأنني خائفة أو مرعوبة! بل فقط لأنني حزينة. الحزن يشلُّ لساني. لست حزينة من أجلي أنا، ولكنني حزينة من أجلك يا عمي، وحزينة من أجل أمي. إن كل شيء يحيط بي في اللحظة التي أفتح فيها فمي يصطبغ بلون الحزن، الطبيعة الجميلة التي تُرى بالعين، السماء الزرقاء، وأشعة شمس أكتوبر، وملمس زهور تمر حنة، وكذلك المياه والصخور والتربة. منذ ذلك اليوم الذي قرأت فيه يوميات أمي، عرفت أن الطبيعة التي تحيط بي تصطبغ بلون الحزن على الفور، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، وفي الحالات الكثيرة خمس أو ست مرات في اليوم، مثل اختفاء الشمس خلف الغيوم. بمجرد أن أتذكرك أو أتذكر أمي، يتحول على الفور العالم الذي يحيط بي إلى شيء مختلف

تمامًا. تُرى هل تعلم، يا عمي، بوجود لون اسمه «لون الحزن»، يختلف عن ألوان علبة الرسم التي تحتوي على ثلاثين لونًا مثل الأحمر والأزرق وغيرهما من الألوان؟ بل إن لون الحزن هذا تراه عيون البشر بوضوح!

من خلال أمرك مع أمي عرفتُ بوجود مشاعر حب لا يباركها الآخرون ويجب ألا يباركوها. إن حبكما لا يعلمه إلا أنت وهي، لا يعلمه أحد مطلقًا. لا تعرفه خالتي ميدوري، ولا أعرفه أنا، ولا يعرفه أحد من العائلة ولا الأقارب. لا يعلمه الجيران على الجانبين، ولا الجيران في الجهة المقابلة، ولا يعلمه أي صديق مقرب، بل يجب ألَّا يعلمه أحد. وبعد أن رحلت أمي بتَّ أنت الوحيد يا عمي الذي يعلمه. ثم بعد أن ترحل أنت كذلك لن يكون على هذا الكوكب أي شخص يمكن أن يتخيل حتى وجود مثل هذا الحب. لقد كنتُ حتى الآن أؤمن أن الحب شيء مشرق، متألق وبرَّاق، يجب أن يباركه الرب ويباركه الناس أجمعون إلى الأبد! مثل النهر الطاهر النقي الذي يتلألأ بجمال تحت أشعة الشمس، وعندما تهب عليه الرياح تنتج أمواجًا حنونًا لا حصر لها، تُحاط بلطف بكثير من أعشاب الضفاف وأشجارها وزهورها، ويعزف موسيقى صافية، ثم يكبر وينمو تدريجيًّا، هذا بحق

كان الحب حسب ظني. كيف كان بإمكاني أن أتخيل حبًّا يشبه مجرى الصرف المُغطَّى، يرقد تحت الأرض في أعماق سرية، ولا يُعرف مِن أين يتدفق ولا إلى أين يمضي، ولا تنصب عليه أشعة الشمس؟ لقد خدعتني أمي على مدى ثلاثة عشر عامًا، ثم رحلت في النهاية عن عالمنا وهي تخدعني. لم أكن لأتخيل ـ ولا في الأحلام ـ وجود أسرار بيني وبينها مهما كانت الظروف. كانت أمي تقول بلسانها هي في أي حال: «إننا وحيدتان، أم وابنتها فقط!». فقط إذا ما سألتُها عن سبب انفصالها عن أبي، كانت تقول لي: «ستفهمين ذلك عندما تتزوجين»، ولم تكن تقول لي السبب، لذا كنتُ أتمنى أن أصل سريعًا إلى سن الزواج. لم يكن سبب ذلك رغبتي في معرفة لماذا انفصل والداي، ولكن لأنني كنتُ أعرف إلى أي درجة عانت أمي كتمانَها هذا السر في قلبها. في الواقع كانت أمي تبدو في عذاب من ذلك، ولم أكن أعلم أن أمي تلك لديها سر آخر تخفيه عني!

عندما كنتُ طفلة، كانت أمي كثيرًا ما تحكي لي قصة ذئب تلبَّسه الشيطان فخدع أرنبًا صغيرًا، وقد تحوَّل ذلك الذئب إلى حجارة عقابًا على خداعه للأرنب. لقد خدعتني أمي! وخدعت خالتي ميدوري وخدعت كل الناس

في هذا العالم! آه ما هذا الذي حدث؟ تُرى ما ذلك الشيطان المريع الذي تلبَّس أمي؟ أجل هذا ما حدث! لقد استخدمت أمي بنفسها كلمة «الشرير» في يومياتها. كتبَت:

> لنكن أنا وميسوغي شريرَين! وما دمنا سنكون شريرَين، إذن لنكن شريرَين كبيرَين!

تُرى لماذا لم تكتب أن الشيطان قد تلبَّسها؟ يا لأمي التعيسة تعاسة أكبر بكثير من تعاسة الذئب الذي خدع الأرنب الصغير! ومع ذلك، ما معنى أن تقرر أمي الرحيمة الحنون تلك، وعمي جوسكيه الذي أحبه كثيرًا، أن يكونا شريرَين؟ بل شريرَين كبيرَين كذلك! يا له من حب حزين، ذلك الذي لا يمكن للحبيبَين الحفاظ عليه من دون أن يتحولا إلى شريرَين كبيرَين! لقد سبق أن اشترى لي أحدهم ثقَّالة أوراق على شكل كرة زجاجية داخلها زهرة صناعية ببتلات حمراء في مهرجان الإله فانديكسفارا بمعبد مدينة نيشينوميا. مسكتها في يدي ثم مشيتُ بها بعض الوقت، وبكيت في النهاية. بالتأكيد لم يعرف أحد وقتها مشاعري وسبب بكائي المفاجئ. لقد اعترتني مشاعر حزن مفاجئ عندما فكرت في بتلات تلك الزهرة المحبوسة داخل قطعة من الزجاج البارد، والتي لا تستطيع أن تتحرك

مهما جاء الربيع أو جاء الخريف، ويتحتم عليها البقاء في مكانها بلا حركة لأنها مصلوبة داخل الزجاج! هذا الحزن نفسه عاد إلى الحياة مرة أخرى الآن. آه! حب أمي وعمي هذا الذي يشبه بتلات تلك الزهرة!

* * *

عمي، عمي جوسكيه،

أعتقدُ يا عمي أنك غضبتَ لأنني قرأت يوميات أمي خلسة. ولكنني، وربما كان ذلك توقعًا مشؤومًا، شعرتُ في اليوم السابق لوفاة أمي بأنها لن تشفى من مرضها وأن موتها قريب. لقد شعرتُ نوعًا ما بتلك النبوءة المشؤومة. كانت أمي، كما تعلم يا عمي، في تحسُّن مستمر خلال الأشهر الستة الماضية، باستثناء الحُمى الخفيفة، لم تضعف شهيتها بصفة خاصة، وعلى العكس كان وجهها لامعًا مشرقًا، وزاد وزنها عمَّا قبل. لسبب مجهول كنتُ أشعر بوحشة لدرجة الغثيان من منظر ظهر أمي في الآونة الأخيرة، خاصة ما بين كتفيها، حتى ذراعيها. جاءت خالتي ميدوري لزيارتها في اليوم السابق لوفاتها، فذهبتُ لكي أخبرها، ولمَّا فتحتُ باب غرفتها الورقي المنزلق، أخذتني المفاجأة. كانت أمي تجلس على الفراش وظهرها لي، وقد ارتدت المعطف الحريري، رمادي اللون، المطرَّزة عليه زهرة

قصوان، الذي لم تُخرجه على مدى سنين طويلة إلا نادرًا، وقد قالت لي في السابق إنها تريد أن تتنازل لي عنه لأنه بات مبهرجًا بالنسبة إلى سنها، ولفَّته في ورق مقوى ووضعته في الخزانة. أدهشني أن ترتديه، وجعلني أصيح من دون وعي قائلة:

ـ أوه!

التفتَت أمي نحوي وبدا عليها أنها لا تعرف سبب دهشتي. سألتني:

ـ ماذا حدث؟

فقلت فقط:

ـ لأنه...

ولم تخرج فورًا من فمي الكلمة التالية، وفي أثناء ذلك لم أدرِ سبب دهشتي المبالغ فيها تلك، فتدريجيًّا بدأ الأمر يتحول إلى موقف فكاهي. فليس أمرًا نادرًا لأمي، التي كانت تهوى ملابس الكيمونو، أن تُخرج رداءً زاهيًا قديمًا وترتديه، وخاصة بعد أن مرضت، من أجل أن تزيل عنها القلق. فهي مرة بعد مرة تُخرج من الخزانة أكثر الملابس بهرجة، ما لم ترتدِه منذ أعوام طويلة، وترتديه، وباتت تلك عادتها اليومية. لكن عندما فكرَت في ذلك فيما بعد، فهمَت أن ما سبَّب دهشتي كان اختيارها أن ترتدي ذلك المعطف الحريري

بالذات. وإن قلتُ إن ذلك جعلني أفيق، فلا مبالغة في ذلك القول، فقد كانت أمي في منتهى الجمال! وفي الوقت نفسه كانت وحيدة، بدرجة لم أرَها بها قَطُّ. وعندما دخلت خالتي ميدوري بعدي مباشرة إلى الغرفة قالت على الفور:

ـ يا للكِ من جميلة!

وظلت لبعض الوقت تجلس في صمت كأنها مسحورة بجمالها.

كان منظر ظهر أمي مرتدية المعطف الحريري جميلًا، إلا أن به وحدة شديدة لم تفارق عينَي طوال ذلك اليوم، كأنها مرساة باردة غُطِّست في قاع قلبي.

وفي وقت الغروب، بعد أن هدأت الرياح التي ظلت تعصف طوال ذلك اليوم، جمعتُ أنا والخادمة سادايو أوراق الشجر الذابلة المتناثرة هنا وهناك في حديقة البيت، ثم أشعلنا فيها النيران. وقررتُ بالمناسبة أن أحرق معها حزمة القش التي اشتريتُها قبل أيام بمبلغ خرافي، ينُمُّ عن غبائي، لكي أصنع بها رماد قش لمدفأة أمي. ويبدو أن أمي رأتنا من خلف زجاج النافذة، فأتت بشيء ملفوف بعناية في ورق تغليف جميل وخرجت إلى حافة الحديقة وقالت لي:

ـ أحرقي هذا أيضًا معها.

وعندما سألتها:

ـ ما هذا؟

قالت بغلظة غير معهودة منها:

ـ أيًّا ما يكون أحرقيه فقط!

ولكنها ربما غيرت رأيها فقالت بهدوء:

ـ إنها يوميات. يوميات أمك.

ثم أكدت عليَّ بالقول:

ـ أحرقيها كما هي!

ارتدَّت على عقبيها معطية ظهرها لي، ثم ذهبت كأن الرياح حملتها، مبتعدة إلى الجهة الأخرى من الممر بخطوات محفوفة بالخطر.

استغرقت عملية صناعة رماد القش نصف ساعة تقريبًا. اشتعل آخر عود من القش بلون أحمر زاهٍ، وتحول إلى دخان أرجواني رفيع، وعندها كنتُ قد حسمت أمري. حملت يوميات أمي خلسةً وصعدت إلى غرفتي بالطابق الثاني، وأخفيتها في أعمق مكان من رف الكتب. في الليل اشتدت الرياح مرة أخرى. عندما نظرت من نافذة الطابق الثاني إلى حديقة البيت التي أنارها ضوء قمر أبيض مهول، شعرت كأنها ساحل بحر مضطرب. سمعت هزيم الرياح يأتي من مكان ما في

أقصى الشمال، كأنه ذروة الأمواج التي تقترب من الشاطئ. نامت كل من أمي والخادمة سادايو منذ وقت طويل، ولم يعد أحد مستيقظًا سواي. وضعتُ خمسة أو ستة مجلدات من كتب الموسوعات الضخمة خلف باب غرفتي لكيلا يُفتح سريعًا، وأسدلت الستائر على النافذة كاملةً (كنت خائفة حتى من ضوء القمر الذي يتسلل إلى داخل غرفتي)، ثم ضبطت مظلة المصباح ووضعتُ تحتها الكراس. كانت تلك يوميات أمي التي خرجت من الغلاف المصنوع من ورق جميل.

* * *

عمي، عمي جوسكيه،

لقد فكرتُ أنني، إن أضعتُ تلك الفرصة، فلن أعرف أبدًا سر انفصال أبي عن أمي. حتى ذلك الوقت لم أرغب في معرفة شيء عن أبي إلى أن أكبر وأتزوج ببراءة، فتذكر لي أمي ذلك من نفسها. كنتُ فقط أحفظ اسمه في صدري باهتمام بالغ: ريئتشيرو كادوتا. ولكن تغيَّر رأيي عندما رأيت ظهر أمي مرتدية المعطف الحريري في النهار، لأن قلبي حينها وصل إلى يقين محزن، وهو أن أمي لن تُشفى من مرضها لسبب مجهول.

لقد وصل إلى أذنَي، في وقت ما، السبب الذي

أدى إلى ضرورة أن يفترق أبي وأمي، من أفواه جدتي والدة أمي وأقاربها في مدينة أكاشي. كان ذلك وقت دراسة أبي في قسم طب الأطفال بجامعة كيوتو من أجل الحصول على الدرجة العلمية، وكنتُ في الخامسة من عمري، وأعيش أنا وأمي وجدي وجدتي والخادمات في مدينة أكاشي. وفي يوم عاصف من شهر أبريل تهب فيه رياح عاتية، زارتنا امرأة شابة تحتضن رضيعًا. عندما صعدت تلك المرأة إلى غرفة الضيوف، وضعت الرضيع في ركن الزينة بالغرفة، وفكت حزام الكيمونو، وأخرجت من السلة التي كانت تحملها معها ملابس تُلبس تحت الكيمونو، وبدأت في تبديل ملابسها، مما أدهش أمي التي أتت تحمل الشاي. كانت تلك المرأة قد جُنَّت، وعرفَت أمي فيما بعد أن ذلك الطفل، المصاب بسوء التغذية، والنائم تحت ثمار الناندين الحمراء في ركن الزينة، هو طفل تلك المرأة من أبي.

تُوفي ذلك الرضيع بعد وقت قصير، ولحسن الحظ كان مرض تلك المرأة العقلي مؤقتًا، وعادت إلى حالتها الطبيعية بعد وقت وجيز، وسمعت أنها تعيش سعيدة حاليًا بعد أن تزوجت تاجرًا في أوكاياما. كان اصطحاب أمي لي وتركها بيت والديها في أكاشي بعد

تلك الواقعة مباشرة، واضطر أبي، الذي كان يسكن في بيت أسرة زوجته ويحمل اسمها، إلى أن يرحل من البيت في النهاية. وعندما دخلتُ مدرسة البنات سمعت جدتي تقول مرة:

- إن سايكو ذات طباع حادة، مع أن ما وقع قد وقع وانتهى!

هل ميل أمي إلى الكمال جعلها غير قادرة على غفران ذلك الخطأ لأبي؟ كان هذا فقط ما سمعته وعرفته عن علاقة أبي وأمي، وكنتُ حتى السابعة أو الثامنة من عمري أعتقد أن أبي قد مات. جعلتني تربيتي أظن هذا. أجل، بل إن أبي حتى الآن ميت داخل قلبي. إنني لا أستطيع، مهما فعلت، أن أتخيل وجود أبي في هذا الواقع المَعيش؛ أبي الذي يدير حاليًّا مستشفى كبيرًا في هيوغو لا تستغرق المسافة إليه من هنا ساعة، أبي الذي لم يتزوج ثانية حتى الآن. لكن حتى إن كان أبي هذا يعيش في الواقع، فبالنسبة إليَّ هو ميت منذ زمن بعيد.

* * *

فتحتُ أول صفحة من يوميات أمي. على غير المتوقع، كانت أول حروف اكتشفتها هنا وكادت تخرق عينَي هي حروف الإثم، أجل

كانت حروف كلمة «إثم»: «إثم، إثم، إثم»، كُتبت تلك الحروف بخط مضطرب وهائج إلى درجة ظننت أنه ليس خط أمي. ثم تحت حروف كلمة «إثم» التي تراصت وتراكمت مرات عديدة، كأن كاتبتها توضح إلى أي مدى تتعذب من ثقلها، كتبتْ بعنف وخشونة فقط:

اغفر لي يا إلهي! اغفري لي يا ميدوري!

ثم اختفت كل الكلمات في محيط تلك الجملة، يتنفس ذلك السطر وحده كأنه شيطان، ينظر ناحيتي بوجه مرعب، كأنه على وشك الانقضاض عليَّ في التو والحال.

أغلقت اليوميات على الفور، بحركة لاإرادية. يا لها من لحظة مرعبة! ينتشر الهدوء القاتل من الجهات الأربع، وأسمع فقط صوت نبضات قلبي، عاليًا. نهضت من على الكرسي، وحرصت مرة أخرى على التأكد من عدم إمكانية فتح الباب والنافذة، ثم عدت إلى مكتبي، وفتحت اليوميات مجددًا بعزم وتصميم. ثم، وبشعور أنني أنا من بِتُّ شيطانًا، قرأت يوميات أمي كاملةً، من البداية إلى النهاية، من دون أن أترك منها حرفًا واحدًا. لم يكن هناك سطر واحد عن أبي الذي كنت أتوق بشدة لكي أعرف عنه أي معلومة. كان المسجل في اليوميات هو فقط ذلك الأمر الذي لا يمكن أن أصدقه، ولا في

الأحلام، بينك يا عمي وبين أمي، بكلمات فظة وعنيفة لدرجة لم يسبق لي أن أتخيل أن أمي تكتب بها. أحيانًا تتعذب وأحيانًا أخرى تفرح، أحيانًا تصلِّي، ثم تيأس فتقرر الانتحار. أجل، لقد قررت أمي الانتحار مرات عديدة، قررت أنها سوف تنتحر في اللحظة التي تعرف فيها خالتي ميدوري بالذي بينها وبينك يا عمي. لم أكن أتخيل أن أمي، التي تتحدث مع خالتي ميدوري بكل هذه الدرجة من المتعة والسرور، تخاف في داخلها منها لتلك الدرجة!

عاشت أمي في تلك اليوميات مدة ثلاثة عشر عامًا، وهي تنوء بحمل الموت على كاهلها. تتواصل اليوميات أحيانًا أربعة أو خمسة أيام، وأحيانًا أخرى تنقطع شهرين أو ثلاثة أشهر، ولكن أمي تواجه موتها دائمًا في كل صفحة من صفحاتها.

> أليس من الأفضل أن أموت؟ ألن تُحل جميع المشكلات إن متُّ؟

آه! تُرى ما الذي جعل أمي تكتب هذه الكلمات اليائسة المتهورة؟

> تُرى ما ضرورة الخوف من أي شيء إن عزم المرء على الموت؟ يا سايكو يجب أن تكوني أكثر صفاقة!

تُرى ما الذي جعل أمي الرقيقة تصرخ بتلك

الكلمات المتمردة؟ هل هذا هو الحب؟ هل هذا هو الشيء الجميل المتألق الذي نسميه «الحب»؟ لقد أهديتني يا عمي في عيد ميلادي في أحد الأعوام كتابًا فيه امرأة عارية تقف بفخر كبير منتصبة القامة على ضفاف بحيرة جميلة، تضغط بكلتا يديها على ثدييها المتجهين إلى أعلى مثل برعمَي زهر، وتلتف حول صدرها الغني خصلات شعرها السبط الطويل الوفير. ويُعلمنا الكتاب أن ذلك هو الحب. آه! لكم يختلف حبك يا عمي وحب أمي عن هذا اختلافًا شاسعًا!

منذ اللحظة التي قرأتُ فيها يوميات أمي، باتت خالتي ميدوري أكثر إنسان أخافه في هذا العالم! لقد أضحت معاناة أمي من إخفاء السر هي معاناتي أنا نفسها. آه! خالتي ميدوري التي تزم شفتيها وتضع بهما قبلة على خدي دائمًا! خالتي ميدوري التي أحبها لدرجة لا أعلم أهي مَن أحبُّ أكثر أم أمي! خالتي ميدوري التي أهدتني، على ما أتذكر، الحقيبة المدرسية التي عليها تصميم وردات كبيرة احتفالًا بدخولي المدرسة الابتدائية في أشييا. خالتي ميدوري التي أعطتني طوق سباحة كبيرًا على شكل نورس عندما تَقرر أن أذهب إلى مدرسة السباحة البحرية في ساحل يورا بمنطقة تانجو. لقد قدمتُ عرضًا

في مهرجان الفن بالمدرسة، وأنا في الصف الثاني، لحكاية «عقلة الإصبع» للأخوين جريم، وقوبل العرض بالتصفيق الكبير، وكانت خالتي ميدوري هي التي حفزتني على الحفظ بإعطائي هدايا كل ليلة تقريبًا. بعد ذلك، كلما فكرت في أي شيء وأنا صغيرة، كانت هناك دائمًا خالتي ميدوري. خالتي ميدوري ابنة عم أمي وأكثر الناس قربًا منها. خالتي ميدوري التي تكتفي حاليًّا بالرقص، ولكنها في الماضي كانت بارعة في لعب الماجونج والجولف والسباحة والتزلج على الجليد. خالتي ميدوري التي تصنع كعكة أكبر من وجهي! خالتي ميدوري التي جاءت ومعها عدد كبير من نجمات فرقة تاكارازوكا المسرحية، ما أدهشنا أنا وأمي كثيرًا. آه! لماذا كانت خالتي ميدوري بهذا المرح، تُدخل المتعة على حياتنا أنا وأمي كأنها باقة ورد عملاقة؟!

* * *

لو حدث ما يشبه التوقع لما بينك وبين أمي، فربما أحسستُ بذلك مرة واحدة فقط. منذ عام تقريبًا، كنتُ في طريقي إلى المدرسة مع صديقة لي، ووصلنا إلى محطة شوكوجاوا على خط هانكيو للسكك الحديدية، وتذكرتُ فجأة أنني نسيتُ في البيت كتابَ قراءة

خاصًّا باللغة الإنجليزية. فتركت صديقتي تنتظرني في المحطة وعدتُ إلى البيت بمفردي لإحضار الكتاب، ولكنني، عندما وصلت إلى مدخل البيت، لم أستطع أن أدخل لسبب مجهول. يُفترض أنني كنتُ أعرف في ذلك اليوم أن الخادمة خارج البيت للتسوُّق منذ الصباح، وأن أمي بمفردها في البيت. لكنني، لسبب ما، كنتُ قلقة من كون أمي بمفردها. كنتُ خائفة. وقفتُ أمام باب البيت أحملق إلى زهور الأزالية المزروعة في المدخل، أفكر لبعض الوقت: أيجب أن أدخل أم لا أدخل؟ وكانت النتيجة أنني أعرضتُ عن إحضار كتاب القراءة ورجعتُ إلى محطة شوكوجاوا. كانت تلك مشاعر عجيبة لا أفهم أنا نفسي سببها. مشاعر أن أمي، منذ مغادرتي بوابة البيت في طريقي إلى المدرسة، تقضي وقتها الخاص وحيدة. مشاعر أنني لو دخلت عليها ستنزعج، وستظهر على وجهها ملامح الحزن. وهكذا، بمشاعر وحدة لا يمكن وصفها، توجهت بمحاذاة نهر أشييا أمشي وأنا أركل الأحجار، إلى أن وصلتُ إلى المحطة، تتحدث إليَّ صديقتي فأسمعها في شرود وأنا أتكئ على مسند المقعد الخشبي في غرفة انتظار المحطة.

كانت تلك المرة الوحيدة في حياتي كلها.

ولكنني أشعر الآن بالرعب الهائل من ذلك الحدس. آه، يا لتلك المشاعر البغيضة التي يملكها الإنسان! هل يمكن القطع بأن خالتي ميدوري لم تشعر في وقت ما، وفي وضع ما، بمثل ذلك الحدس الذي أحسست أنا به دونما أي سبب أو أساس؟ خالتي ميدوري التي تفخر أكثر من أي شيء آخر بأنها تستطيع أن تشمَّ مشاعر الطرف الآخر في لعبة الكوتشينة أسرع من كلاب «بوينتر» الإسبانية! آه، مجرد التفكير فقط في الأمر مرعب! ولكن على الأرجح أن ذلك مجرد خوف خيالي لديَّ، مثير للسخرية. فكل شيء قد انتهى بالفعل، وحُفِظ السر. بل إنني أؤمن أن أمي ماتت من أجل الحفاظ على السر.

في ذلك اليوم المشؤوم، نادتني أمي قبل أن تبدأ بإطلاق صرخات قصيرة والتلَوِّي من آلام رهيبة، كان يصعب تحمُّل النظر إليها وهي تعانيها، وقالت لي بوجه ناعم مريب يشبه وجوه عرائس مسرح «البونراكو» التقليدي:

ـ لقد تناولتْ أمك السم! تعبتُ، تعبتُ من عيش هذه الحياة.

كان صوتها صافيًا، عجيبًا، كأنه موسيقى سماوية، كأن تلك الكلمات ليست موجهة إليَّ، بل إلى الرب من خلالي. لقد سمعتُ بوضوح صوت انهيار كلمات «إثم، إثم، إثم» التي

قرأتُها في يوميات أمي، حروف كلمة «إثم» تلك، التي تراكمت عاليًا مثل برج إيفل، تنهار بصوت يشبه الرعد ويحيط بأمي. ثِقَل مبنى الآثام المصنوع من عدة طوابق على مدى ثلاثة عشر عامًا سحق الآن أمي التي أعياها التعب والإرهاق، ويحاول أن يمحوها. وقتها، جلستُ أمام أمي في ذهول بلا حركة، ونظرتُ إلى الجهة البعيدة التي تحملق إليها أمي، فهجم عليَّ غضب يشبه عواصف أواخر الخريف التي تهب فجأة، صاعدة من أعماق الوديان. كانت مشاعر تشبه الغضب على أي حال. مشاعر ملتهبة وكأنها في غليان مستمر، سخط لا يُوصف تجاه شيء مجهول. أجبتُ وأنا أحدق إلى وجه أمي الحزين:

ـ حقًّا!

هكذا فقط، كأن الأمر لا يعنيني في شيء. وعندما أجبت هكذا، برد قلبي، كأن ماء مثلجًا قد أُلقي عليه. ثم نهضتُ بمشاعر هادئة لدرجة أدهشتني أنا شخصيًّا، ومن دون أن أخترق غرفة الضيوف، ذهبت عابرة الممر الطويل المعقوف كأنني أمشي على الماء (حدث ذلك وقتها، سمعت صرخات الألم القصيرة لأمي وهي تصارع سكرة الموت)، ثم دخلت غرفة الهاتف في نهاية الممر، واتصلت بك يا عمي. ولكن بعد مرور خمس دقائق، لم

تأتِ أنت بل خالتي ميدوري هي التي هرولت من مدخل البيت. لفظت أمي أنفاسها الأخيرة وخالتي ميدوري أقرب إنسان إليها وأكثر مَن تخافه تقبض على يدها. ثم وضعت خالتي ميدوري قطعة قماش أبيض على وجه أمي الذي لم يعد يشعر بأي آلام ولا أحزان.

* * *

عمي، عمي جوسكيه،

كانت ليلة العزاء الأولى ليلة هادئة لدرجة لا يمكن الاعتقاد أنها من ليالي هذا العالم. فقد توقفت تمامًا حركة دخول الناس وخروجهم بكثرة، من رجال شرطة وأطباء وجيران، وفي الليل جلسنا نحن الثلاثة فقط، عمي وخالتي ميدوري وأنا أمام التابوت، في صمت تام، كأننا نستمع إلى خرير ماء خافت يقترب ليغرقنا جميعًا. كلما نفد عود البخور قام أحدنا بالتبادل ليشعل عودًا آخر ويصلي أمام صورتها، أو يفتح النافذة بهدوء ليتغير هواء الغرفة. كنتَ أنت يا عمي أكثرنا حزنًا. عندما تنهض لإشعال البخور، كنتَ تتأمل طويلًا صورة أمي، لكن بنظرات هادئة، ثم تتصنع ابتسامة خافتة على وجهك الحزين لكيلا تدرك أي منا ذلك الحزن. في تلك الليلة، لكم فكرتُ أنه، مهما كانت حياتها قاسية، ربما كانت أمي سعيدة!

في الساعة التاسعة تقريبًا، ذهبتُ لأقف بجوار النافذة. بدأت أبكي فجأة بصوت عالٍ. وقتها نهضتَ يا عمي، ووضعتَ ذراعك برفق على كتفي، وبقيتَ لفترة على تلك الحال، ثم عدتَ لتجلس في مكانك من جديد من دون أن تقول شيئًا. وقتها لم أكن أبكي لأنني اجتاحني الحزن على وفاة أمي، بل لقد اجتاحتني فجأة مشاعر ألم حين تساءلت: لماذا لم تأتِ أنت يا عمي على الفور بدلًا من خالتي ميدوري، عندما اتصلتُ بك وأبلغتك أن أمي في وضع خطير؟ وأيضًا تذكرتُ أن أمي في الظهيرة لم تذكر حرفًا واحدًا من اسمك يا عمي ضمن آخر كلماتها. شعرتُ بالأسى تجاه حبكما، الذي أوجب عليكما إتقان دوريكما حتى الموت، مثل بتلات وردة الثقالة المصلوبة داخل الزجاج. عندها نهضتُ واقفة وفتحتُ النافذة، ونظرتُ عاليًا تجاه النجوم الباردة في السماء، وتحمَّلتُ الحزن الذي يوشك أن يصرخ بصوت عالٍ، ولكن فجأة عندما فكرت أن حب أمي الآن يصعد عاليًا نحو السماء وسط تلك النجوم ويجري خلسة من دون أن يعلم به أحد في المسافة بين نجم ونجم، لم أستطع الصبر. فكرتُ أنه لا يمكن مطلقًا مقارنة الحزن على موت إنسان واحد فقط، هي أمي، بعمق حزن ذلك الحب

الذي يتصاعد في السماء.

بكيتُ مجددًا بكاءً عنيفًا عندما أمسكتُ عصيان الأكل لوجبة السوشي المخصصة للعشاء. فقالت لي خالتي ميدوري بصوت هادئ في حنان ورفق:

ـ تمالكي نفسك، فكم أعاني لعدم قدرتي على فعل شيء لأخفف عنك.

عندما مسحتُ دموعي ورفعت عينَي، كانت خالتي ميدوري أيضًا تحملق إليَّ وعيناها ممتلئتان بالدموع. هززتُ رأسي يمينًا وشمالًا وأنا أنظر إلى عينَي خالتي ميدوري الرائعتين المبللتين. على الأرجح أن خالتي لم تهتم وقتها بسلوكي البسيط هذا. لقد بكيتُ وقتها فجأة لشعوري بالأسى تجاه خالتي ميدوري. وأنا أنظر إلى خالتي ميدوري ـ وقد قسَّمت السوشي إلى أربعة أجزاء، فوضعت الجزء الذي يقدَّم لروح أمي المتوفاة في طبق، ثم الجزء الخاص بك يا عمي في طبقك، ثم جزءًا في طبقي، وآخر في طبقها ـ فجأة لسبب مجهول، فكرت: آه إن خالتي ميدوري هي أتعس إنسان في الوجود. فجعلتني تلك المشاعر أبكي بنشيج عالٍ.

وبكيت في تلك الليلة مرة أخيرة. كان ذلك بعد أن دخلت لكي أنام في الغرفة المجاورة،

عندما شجَّعتماني أنتَ وخالتي على ذلك بالقول إن غدًا سيكون يومًا عصيبًا. عندما دخلت الفراش، نمت على الفور نومًا عميقًا بسبب إجهاد النهار، ولكنني استيقظت وأنا غارقة تمامًا في العرق. وعندما نظرتُ إلى ساعة رف الكتب وجدت أن ساعة تقريبًا قد مرت. كانت الغرفة المجاورة التي تحتوي على التابوت تقبع في هدوءٍ قاتل مثلما كانت منذ قليل، ولم أسمع منها أي صوت باستثناء استخدامك القداحة يا عمي. وبعد مرور نصف ساعة:

ـ ما رأيك لو تنامين؟ سأظل أنا مستيقظًا.

ـ كلَّا، أنت الذي يجب أن تستريح!

هكذا سمعت حواركما القصير، ولكنه توقف بعد ذلك وعاد الهدوء إلى المكان، ومهما مر من وقت لم يخترق ذلك الهدوء شيء. فبكيتُ للمرة الثالثة بكاءً عنيفًا متواصلًا وأنا داخل فراشي. وأعتقد أن صوت بكائي هذه المرة لم يصل إلى سمعيكما. وقتها شعرتُ بأن كل شيء وحيد وحزين ومخيف. أنتم الثلاثة في غرفة واحدة، أمي المتوفاة وأنت يا عمي، ثم خالتي ميدوري. صمتكم مطبق وكل منكم له تفكيره ومشاعره الخاصة. بدأتُ أعرف أن عالم الكبار هو عالم الوحدة والحزن والخوف بدرجة لا تُحتمل.

* * *

عمي، عمي جوسكيه،

لقد كتبتُ عديدًا من الأمور بلا ضابط ولا رابط. كتبتُ مشاعري التي أشعر بها كما هي بقدر الإمكان، من أجل أن تتفهَّم يا عمي رجائي الذي سوف أطلبه منك.

إن رجائي، وليس لي رجاء سواه، هو أنني لا أريد بعد الآن أن ألقاك ولا أن ألقى خالتي مرة ثانية. فأنا لا أستطيع أن أتدلل ببراءة بين يديك يا عمي كما كنتُ أفعل قبل قراءة اليوميات، ولا أستطيع أن أطلب من خالتي ميدوري بلا قلب طلباتي الأنانية المعتادة. إنني أريد الخروج من وسط أنقاض حروف كلمة «الإثم» التي دهست أمي وقضت عليها. لم يعد لديَّ القدرة على الكتابة أكثر من ذلك.

سأجعل عمي تسوموورا من أقاربنا في مدينة أكاشي يعتني بهذا البيت في أشيبا، وسوف أعود إلى مدينة أكاشي، وأفتتح محلًّا صغيرًا لحياكة الملابس الغربية، وأكسب قوتي بنفسي. لقد قالت لي أمي في وصيتها الخاصة بي إن عليَّ استشارتك في كل صغيرة وكبيرة، ولكنني أعتقد أن أمي، لو علمت بمشاعري الحالية، لما أمرتني بذلك بتاتًا.

لقد أحرقتُ يوميات أمي اليوم في حديقة البيت. تحوَّل الكراس الكبير إلى كمية صغيرة جدًّا من الرماد، بحجم قبضة يد واحدة، وفي أثناء ذهابي لإحضار دلو لألقي ماءً على الرماد، عصفت به زوبعة حلزونية صغيرة وذهبت به مع أوراق الشجر الذابلة إلى مكان مجهول.

سأرسل إليك في ظرف مستقل الرسالة التي كتبتها أمي لك. لقد عثرتُ عليها عندما كنتُ أرتب مكتب أمي في اليوم التالي لذهابك إلى طوكيو.

رسالة ميدوري

إلى السيد جوسكيه ميسوغي المحترم،

عندما أكتبُ اسمك هكذا بتلك الصيغة الرسمية، ينفعل قلبي من دون اعتبار لعمري (ومع قَولي ذلك فما زلتُ في الثالثة والثلاثين من العمر) وكأنني أكتب رسالة غرام. وعندما أفكر أجد أنني، خلال السنوات العشر الماضية، قد كتبت عديدًا من رسائل الغرام، أحيانًا خلسة منك وأحيانًا أخرى علانية. وعندما أفكر أن ليس بينها رسالة واحدة موجهة إليك، أتساءل: تُرى ما سبب ذلك؟ وعندما أفكر بجدية بعيدًا عن المزاح، أجد أنني أشعر بمشاعر عجيبة لا أستطيع أنا شخصيًّا تفهُّمها. ألا تشعر أنتَ بغرابة ذلك؟

في أحد الأوقات، زوجة السيد تاكاغي (أنت تعرفها، أليس كذلك؟ تلك التي إن تجملت يصير وجهها شبيهًا بوجه الثعلب) أخذتْ تُقيِّم الأشخاص المقيمين بين أوساكا وكوبيه على مدى الأجيال. وقتها قيَّمَتك تقييمًا في منتهى الوقاحة، قائلة عنك: «رجل غير مُسَلٍّ بالنسبة إلى النساء، رجل لا يفهم تعقيدات قلب المرأة، على الأرجح لن تقع امرأة في

هواه طوال حياته، حتى وإن وقع هو في هواها». بالطبع كانت تلك زلة لسان من السيدة تاكاغي وهي في حالة من السُّكْر البيِّن، ولا ضرورة البتة من أخذها على محمل الجد، ولكن من المؤكد أن بك بعض تلك الصفات أحيانًا. فأنت عادة لا علاقة لك بأي نوع من أنواع الوحدة مطلقًا. لا تشعر بأي قدر، ولو بسيطًا، بالوحشة والعزلة. حتى لو بدت على وجهك ملامح الملل، فمن المستحيل أن تظهر عليه ملامح الوحدة. أنت أيضًا تفكر في كل الأمور بحيادية وموضوعية، بعيدًا عن المشاعر، وتؤمن إيمانًا مطلقًا بأن تفكيرك هو الأكثر صوابًا. ربما يكون دافعك إلى ذلك الثقة بالنفس، لكني عندما أرى ذلك أرغب في الإمساك بك وهزك بشدة لجعلك تفيق من هذا الشعور. وفي قول واحد، أنتَ رجل بلا أي قدر من التسلية التي تقنع المرأة، وحتى إن وقعت امرأة في هواك فلن تحصل على عائد من ذلك أبدًا.

لذلك ربما يكون من الأصل أمرًا محالًا أن أطلب منك طلبي المنفعل هذا، بأن تفهم عدم اقتناعي الغريب أن ما من رسالة واحدة موجهة إليك بين عشرات من رسائل الحب التي كتبتُها. ومع ذلك ففي الواقع أنا أعتقد أن ذلك أمر عجيب. فعلى الأقل لا مانع من

وجود رسالة أو اثنتين من رسائل الحب موجهة إليك. من المنطقي أن نفكر كما يلي: في الواقع أنا لم أوجِّه رسائلي الغرامية إليك، ولكن إن كنتُ قد كتبتُها كلها بمشاعري التي أود توجيهها نحوك، فربما ثمة خطأ في المستلم فقط، وما من فجوة كبيرة بينها وبين مشاعري الحقيقية الشخصية. فأنا خجول بطبعي، ومهما كبرت في العمر، أظل مثل فتاة بلا خبرة، لا أستطيع كتابة رسالة معسولة إلى زوجي، وأجتهد في أن أكتب رسائل غرامية إلى رجال آخرين بدلًا منه. وهذا ما يمكن أن يسمَّى «القدر»، إنه حظي السيئ الذي وُلدت به. وهو في الوقت نفسه حظك السيئ أنت أيضًا.

اقترابي
منك
في حالتك تلك
يهدم بنبل
سكينتك

تلك هي مشاعري، كتبتها في قصيدة، في الخريف الماضي عندما كنتُ أفكر فيك وأنت في غرفة مكتبك. شِعر يعبِّر عن قلب زوجة تعيسة لا تريد تحطيم ـ أو يجب القول إنها حتى لو أرادت فهي لا تعرف وسيلةً لتحطيم ـ بيئتك الساكنة، وأنت تطيل النظر إلى

قطعك الخزفية التي لا حصر لها (آه! يا لك من قلعة حصينة، بلا ثغرة من أي جهة، ولا يمكن اختراقها). ستقول لي: «يا لكِ من كاذبة!»، أليس كذلك؟ لكنني، وإن كنتُ ألعب الماجونج حتى الصباح، فقد كنتُ أملك رباطة جأش لكي أُحرِّك مشاعري تجاهك قليلًا، وأنت في غرفة مكتبك المنفصلة. مع ذلك حتى القصيدة هذه، في النهاية، كانت نتيجتها أن حطمت، بعبث، السكينة العالية للحالة النفسية لبروفيسور شاب، كما تعلم أنت أيضًا، بعدما وضعتُها خلسة على مكتب السيد تاغامي في بيته، فتى الفلسفة الأول. ومع أنني أقول «فتى»، فقد نال ترقية كبرى من محاضر إلى أستاذ مساعد في الجامعة في ربيع هذا العام. ظهر وقتها خبر عني في صفحة الشائعات بالجريدة الحمراء، ما تسبب في إزعاجك قليلًا. لقد قلتُ قبل قليل إنني، كلما نظرت إليك، رغبت في الإمساك بك وهزك لتفيق، ولكن هل استطعتُ بتلك الحادثة البسيطة أن أهزك؟ ما رأيك؟

* * *

حسنًا مهما تحدثتُ بالشكوى والتذمر عن ذلك الأمر، فلن يزيدك ذلك إلا نفورًا واستياءً. لذا قررت أن أدخل في الموضوع الرئيسي.

ما رأيك؟ ألا ترى أن علاقتنا الزوجية

الصورية قد دامت طويلًا جدًّا؟ ألا تفكر في أن ننتهز هذه الفرصة ونضع لها نهاية كبرى، بلا عودة؟ لا خلاف على أنها نتيجة حزينة، ولكن إن لم يكن لديك اعتراض، ما رأيك لو نفعلها؟ لو نُفعِّل تلك الطريقة التي تجعلني أنا وأنت نعيش في حرية تامة في هذا العالم؟!

أعتقد أن تصفية علاقتنا غير الطبيعية هذه، في هذا الوقت الذي تنسحب فيه من الخط الأول للعمل بجميع أنواعه وتستريح (لم أكن أتوقع قَطُّ أن يُدرج اسمك ضمن قائمة رجال الأعمال المطرودين من المجال العام بعد الحرب!)، هي أفضل فرصة بالنسبة إليك. سأذكر لك طلباتي ببساطة. سوف أكتفي تمامًا إن أعطيتني فيلا تاكارازوكا وفيلا ياسيه. فمساحة فيلا ياسيه مناسبة تمامًا والبيئة المحيطة أيضًا تتوافق مع مزاجي، لذا سوف أجعلها مقرًّا لسكني. أما فيلا تاكارازوكا فسوف أبيعها بمليونَي يِن تقريبًا، وأعيش من ذلك المبلغ ما تبقى لي من عمر. لقد بدأت منذ فترة في وضع هذه الخطط الأنانية المتنوعة لحياتي، أي أن ذلك هو آخر أفعالي الأنانية، أنا التي لم يسبق لي أن تدللت عليك مرة واحدة قَطُّ، فهذا هو طلبي وإلحاحي الوحيد عليك، الذي ليس له مثيل من قبل ولن يكون له من بعد.

طلبي المفاجئ هذا ليس سببه أنني عثرتُ الآن على شريك رائع يمكن أن أطلق عليه لقب «عشيق»، وبالتالي لا داعي للقلق من أنني سوف أبدد أموالك تلك على أحد. بل لسوء الحظ يمكنني القول إنني حتى الآن لم أعثر على شخص واحد لا أخجل أن أطلق عليه هذا اللقب، رجل تصل عنايته إلى قفاه، بحيث يكون منعشًا مثل عطر الليمون، وأن يكون خصره نظيفًا ومتينًا مثل خصر الظبي. لم يمر أمامي رجل يتوفر فيه مجرد هذين الشرطين فقط. لسوء الحظ، إن انجذاب الفرحة الأولى لزوجة جديدة تجاه قامتك الطويلة في الماضي ما زال قويًّا حتى اليوم، بعد مرور عشر سنوات. وعلى ذكر الظبي، في أحد الأيام نشرت الصحف خبرًا عن شاب يعيش عاريًا مع قطيع ظبيان في صحراء سوريا. آه! لكم كانت صورته رائعة الجمال! يا لبرود وجهه أسفل شعره الأشعث، ويا لجاذبية ساقيه اللتين يقال إنهما تجريان بسرعة خمسين ميلًا في الساعة! حتى عندما أفكر فيه الآن فإن عروقي تنتفض من جريان غريب للدماء. أليس هذا الوجه الذي يجب أن يقال عنه «مثقفًا»؟ أليس هذا شكل الجسم الذي يجب أن يوصف بـ«الوحشية»؟

إن عيني التي رأت صورة ذلك الفتى لم تعد

ترى في أي رجل آخر إلا رجلًا عاديًّا شائعًا، وتشعر مع هؤلاء الرجال بالملل الفظيع. إن حدث في وقتٍ ما أن اشتعلت شرارة الخيانة في قلب زوجتك مؤقتًا، فلن تكون إلا لحظة الانجذاب إلى فتى الظبيان هذا. عندما أتخيل بللَ بشرته المشدودة بلا تراخٍ بحبات الندى الليلي في الصحراء... كلَّا، بل مجرد التفكير في نقاء قدَر ذلك الفتى النادر يجعل قلبي حتى الآن يموج في جنون.

لقد حدث في العام قبل الماضي أن تحمستُ فترة للسيد ماتسوشيرو، من جماعة الفن الحديث. ويزعجني كثيرًا لو أخذتَ كل ما قيل عن ذلك الأمر من شائعات، على عواهنه، على أنه حقيقي. من المؤكد أنني كنتُ وقتها أشع حزنًا مريبًا يثير الشفقة في عيون من يراني، مع أنه لم يكن ثمة شيء يستحق أن يشفق بسببه عليَّ أحد! ومع ذلك لقد انجذب قلبي قليلًا لعينيك في ذلك الوقت، حتى وإن لم تصلا إلى درجة عينَي فتى الظبيان، ولكنهما كانتا رائعتين على أي حال. لماذا لا تنظر ناحيتي ولو قليلًا، مع أن لك مثل هاتين العينين الساحرتين؟ إن القوة ليست هي القدرة الوحيدة، أليست هاتان العينان هما اللتان تنظر بهما إلى الخزف؟ ولذلك بتُّ باردة كالثلج، مثل خزف كوتاني القديم، وتعترينني

رغبة عارمة في أن أجلس في سكون تام في مكان ما بلا حركة، ولذا صرتُ أذهب إلى مرسم ماتسوشيرو ذي البرد القارس وأجلس موديلًا للوحاته. لكن حتى إن كان مقلدًا لموريس أوتريلو، فأنا مقتنعة حتى الآن بطريقة رؤيته للمباني. أعتقد أنه من النادر في اليابان حاليًا وجود رسام يستطيع أن يُعبر بالمشاعر لتلك الدرجة عند رسم مبنى تافه، وأن يعمِّق الكآبة العصرية (والهزيلة للغاية). ومع ذلك فهو فاشل إنسانيًا! راسب! إن نلتَ أنت مائة درجة فهو ينال بالكاد خمسًا وستين. فحتى إن كان ذا موهبة، فهو قذر في مكان ما، ومع أن وجهه منسق ووسيم إلا أنه ـ مما يؤسف له ـ لا يملك سموًّا. وإنْ وضع الغليون في فمه مثلًا يضحى على العكس منظره هزليًا، وجه عادي لفنان من الدرجة الثانية امتصَّت لوحاته كل ما هو جميل، فلم يبقَ في وجهه أي جمال.

بعد ذلك، العام الماضي، اعتنيتُ بالفارس تسومورا الذي قاد مهرة السباقات بلو هوماري وفاز بالجائزة الكبرى لسباق وزارة الزراعة. ووقتها أيضًا كانت عيناك تبرقان بالخبث والاحتقار البارد أكثر من الشفقة والتعاطف. لقد كنتُ في البداية أظن، عندما ألقاك في الممر، أن أوراق الشجر الخضراء

خارج النافذة هي التي تجعلني أرى في عينيك الاهتمام، لكنني انتبهت بعدها إلى أن ظني خطأ لدرجة شنيعة. كانت غفلة حقيقية مني. لو أدركتُ ذلك في وقته لتجهَّزتُ نفسيًّا، قليلًا أو كثيرًا، عندما أنظر إليك، سواء ببرودة أو بحرارة! لكن في كل الأحوال وقتها كان جمال السرعة فقط هو الذي يشل كل حواسي، وأسلوبك القَرْوَسَطي في إظهار العواطف لم يكن له علاقة بي من قريب أو بعيد على الأرجح. ولكن لكَم كنتُ أرغب في أن ترى، على الأقل، الروح القتالية الطاهرة لتسوموورا وهو يمتطي ظهر المهرة بلو هوماري التي ليس لها مثيل في تفوقها، ويتخطى بضع عشرة فرسًا من أفراس السباق، فرسًا بعد أخرى، في نهاية الخط المستقيم للسباق. بالتأكيد، حتى أنت كنت ستفتن كثيرًا بهيئة ذلك الكائن الحي (تسوموورا بالطبع، وليس بلو هوماري) الجاد الجذاب في تلك اللحظة، لو نظرت إليه من خلال المنظار المكبر.

إن ذلك الفتى ذا الاثنين والعشرين عامًا، الذي يميل قليلًا لأن يكون صبيًّا مشاغبًا، اجتهد في أن يحقق رقمًا قياسيًّا جديدًا مرتين، فقط لمجرد أنه يعرف أنني أنظر إليه من خلال المنظار المكبر. كانت تلك التجربة

الأولى لي في رؤية مثل هذا النوع من الشغف. من أجل رغبة ذلك الفتى العارمة في أن أمدحه، فإنه ينسى فوق تلك المهرة ذات اللون البني أمري كليةً، ويتحول إلى مجرد روح من السرعة الفائقة. من المؤكد أن الهدف الأسمى لحياتي وقتها كان أن أرى من فوق المدرجات، بحب (أجل إنه نوع من أنواع الحب)، ذلك الشغف الصافي مثل الماء الرقراق، يخفق بشدة داخل المضمار البيضوي الذي يبلغ ألفين ومائتين وسبعين مترًا. لم أفكر قَطُّ أن إهداءه ثلاث قطع من الألماس، متبقية من فترة الحرب، جائزةً له، خسارة فيه. لكن حتى جاذبية ذلك الفارس الشاب لم تكن إلا وهو فوق ظهر بلو هوماري، فإن نزل عن ظهرها ووقف على الأرض، بات مجرد فتى بشعر طويل لا يدرك مذاق القهوة إدراكًا كافيًا. أي نعم، كانت الروح القتالية الجسور المتهورة التي درَّبها فوق ظهر المهرة تجعله يتفوق بالنسبة إليَّ على مصاحبة الأديب سينو أو اليساري المنهار ميتاني، ومع ذلك كان هذا أقصى ما في الأمر. ولذا في النهاية، توسَّطتُ بينه وبين راقصة شابة في الثامنة عشرة من عمرها، صاحبة شفاه مكتنزة، وكانت أيضًا إحدى من أعجبتُ بهن، إلى أن أقمت لهما حفل زفافهما.

اندفعتُ بالثرثرة، وفي النهاية انحرف مجرى الحديث إلى مواضيع هامشية. بالتأكيد، مهما قلت إنني سأنسحب إلى منطقة ياسيه، في الجزء الشمالي من مدينة كيوتو، فما زال لديَّ قليل من محبة الحياة يبعد عني أي نية في الاعتزال والتقاعد. وليس لديَّ نية للترهبن كذلك. سأتنازل عن الرغبة في بناء فرن وصناعة أكواب من الخزف لك، وسأعمل أنا على إنتاج الزهور في تلك الفيلا. فمن المتوقع أن أحصل على عائد كبير من بيعها في منطقة شيجو بوسط كيوتو. أستطيع زراعة مائة أو مائتَي زهرة من القرنفل مع الخادمة كبيرة السن والخادمة متوسطة العمر، وبعد ذلك عاملتين قررت أن أصحبهما معي. ولفترة طويلة من الوقت، سوف أُحرِّم على نفسي معرفة الرجال، فلقد مللتُ قليلًا من الغرفة التي يمتلئ هواؤها برائحتهم. حقًّا لا كذبًا. لقد فكرتُ هذه المرة بجدية في إعادة الأمور إلى نصابها ووضعتُ خططًا لحياتي بنية اكتشاف سعادتي الحقيقية.

حسنًا ربما تندهش من طلبي منك الفراق فجأة بهذه الطريقة، كلَّا، يُفترض على العكس أنك كنتَ دائمًا تشعر بالشكوك من عدم إبدائي هذا الطلب حتى الآن. وأنا أيضًا عندما فكرتُ الآن، اندهشت من أنني استطعت

مواصلة هذه الطريقة في العيش معك على مدى بضعة عشر عامًا، وعندما ألتفتُ إلى الخلف، إلى تلك الحياة، أشعر الآن، بعد فوات الأوان، بعديد من المشاعر العارمة. لقد وُصمتُ بوصم الزوجة سيئة الأخلاق إلى حدٍّ ما، ربما كنا نعطي الآخرين معًا انطباعًا أننا زوجان غريبا الأطوار، لكن حسنًا، حسنًا، لم يحدث لنا انهيار كبير في وضعنا الاجتماعي، بل في بعض الأوقات كنا نؤدي معًا دور الوساطة في زواج الآخرين، حتى وصلنا إلى وضعنا الحالي. أعتقد أنني، في هذه النقطة، أستحق منك المديح الشديد. ما رأيك؟

يا لها من مهمة صعبة للغاية، كتابة رسالة لطلب الطلاق! فأنا أكره البكاء، وأكره كذلك الحيوية والنشاط الزائدَين. أريد التقدم بطلب جميل للطلاق، من دون أن يجرح كل منا الآخر، ولكن الأمر ظهر بشكل غريب وشاذ في هذه الرسالة. إن كان الأمر كذلك، فمن الأحرى أن أكتب الآن رسالة في منتهى البرود، تليق فعلًا برسالة طلب طلاق! فأنت في العادة تتناقش ببرود وهدوء، ولذا اغفر لي اجتهادي في كتابة رسالة كريهة تساعدك على أن تناقشها ببرود وهدوء.

* * *

حدث ذلك في شهر فبراير ١٩٣٤. كنتُ في

فندق بمنطقة أتامي، وعلى ما أتذكر، كانت الساعة في حدود التاسعة صباحًا عندما رأيتُك من غرفتي في الطابق الثاني، تسير فوق جرف عالٍ، مرتديًا ملابس غربية، رمادية. إنها قصة يوم ضبابي مثل الأحلام في ماضٍ بعيد جدًّا. أرجو منك أن تسمعني بقلب هادئ وبلا ضجيج. لكم آلمت عينَي رؤية زهرة قصوان زاهية اللون وسط المعطف الرمادي الحريري لامرأة جميلة، طويلة القامة، كانت خلفك مباشرة. ولم أكن أتوقع قَطُّ أن شكِّي سيتحول إلى حقيقة. جئتُ في الليلة السابقة من أجل التحقق من ذلك الشك، ولم أنَم لحظة واحدة في قطار الليل الذي هزني هزًّا شديدًا. إنه تعبير قديم مبتذل، ولكنني تمنيتُ أن أستيقظ لو كان ذلك حلمًا. وقتها كنتُ في العشرين من عمري (في عمر شوكو الآن نفسه). كانت صدمة عنيفة جدًّا لعروس صغيرة السن، لا تعرف يمينها من شمالها في هذه الحياة. استدعيتُ عامل الفندق على الفور، وأنهيت دفع الحساب وأنا أحاول تلفيق الأسباب لذلك العامل المتشكك، وانطلقت مغادرة وأنا أشعر بأنني لا أقوى على البقاء ساكنة في ذلك المكان، ولو قليلًا. ثم وقفت على الرصيف أمام الفندق فترة من الوقت، وأنا أشبك

ذراعَي وكأنني أعصر الآلام الحادة لصدري المحترق. ترددتُ قليلًا: أأنزل إلى البحر أم أذهب إلى المحطة؟ ثم بدأت النزول في اتجاه البحر، لكنني توقفت قبل أن أكمل خمسين مترًا. تسمَّرتُ في مكاني أحدق إلى نقطة واحدة من البحر ذي اللون الأزرق البروسي، المتألق في ذروة الشتاء، والذي كان وكأن رسامًا عصر أنبوب اللون مباشرة عليه. غيرتُ رأيي، استدرتُ وأعطيت البحر ظهري، وبدأت أمشي في الاتجاه العكسي، في اتجاه طريق المحطة. وعند التفكير، فقد استمر هذا الطريق طويلًا، طويلًا، حتى أوصلني إلى وضعي الحالي. لو نزلتُ وقتها في الطريق إلى شاطئ البحر حيث كنتما، لاكتشفتُ على الأرجح «أنا» مختلفة عني اليوم. ولكنني، لحسن الحظ أو لسوئه، لم أفعل. وعندما أفكر في ذلك الآن، أعتقد أنه كان أكبر مفترق طرق في حياتي كلها.

تُرى لماذا لم أنزل وقتها إلى طريق البحر؟ سبب واحد ولا سواه: لأنني مهما فعلت فلن أصل أبدًا إلى قدرات تلك المرأة الجميلة التي تكبرني بخمس أو ست سنوات، أي سايكو. فلن أضارع خبرتها في الحياة، ولا معرفتها، ولا مواهبها، ولا جمال وجهها، ولا حنان قلبها ورقته، ولا طريقتها في مسك كوب القهوة أو

الشاي، ولا حديثها في الأدب والفن، ولا طريقتها في سماع الموسيقى، ولا طريقتها في تجميل نفسها. يا للتواضع! تواضع عروس في العشرين لا يمكن التعبير عنه إلا بخط مائل بسيط في لوحة. أنت أيضًا خضت تلك التجربة، أليس كذلك؟ عندما تغطس في بحر بارد في بدايات الخريف فتشعر بقسوة البرودة كلما حركتَ جسدك قليلًا، لذا تحاول الثبات من دون حركة. بالطريقة نفسها كنتُ أخاف من حركة جسدي. ثم أخذتُ ذلك القرار الرائع بعد وقت طويل، طويل جدًّا: لأخدعك كما خدعتني!

وحدث أن كنتَ تنتظر أنت وسايكو القطار السريع القادم من أوساكا في صالة انتظار الدرجة الثانية بمحطة سانُّوميا. هل كان ذلك بعد عام تقريبًا مما حدث في فندق أتامي؟ وقتها كنتُ محاطة بمجموعة من طالبات مدرسة بنات مثل الزهور في رحلة مدرسية، وكنت محتارة: أأدخل قاعة الانتظار تلك أم لا أدخلها؟ وأيضًا حدث أمام بيت سايكو، وأنا أنظر إلى نافذة الطابق الثاني التي يتسرب ضوء كهربائي خافت من فتحات ستائرها، مرة أخرى وقفت أفكر أمام باب المدخل المقفول بإحكام مثل غطاء محارة قوقعة: أأضغط بإصبعي على جرس الباب، أم يجب

ألا أفعل؟ إن ذاكرة الليلة التي صخب فيها أزيز الحشرات العالي منقوشة داخل جفوني حتى الآن بوضوح. وأعتقد أن تلك الحادثة أيضًا حصلت في وقت حادثة محطة سانُّوميا نفسه تقريبًا. ولكن مع ذلك لا أستطيع أن أتذكر إن كان ذلك في فصل الربيع أم الخريف! دائمًا ما أفقد الإحساس بفصول السنة في هذا النوع من الذكريات فقط. وبعد ذلك، ثمة عديد وعديد من الأفعال التي قد تجعلك تصرخ ألمًا! ولكن في النهاية لم أفعل منها شيئًا. حتى وقت فندق أتامي، ألم أمتنع عن النزول في طريق البحر؟ حتى ذلك الوقت، آه! حتى ذلك الوقت، يا للعجب! حتى تلك اللحظة، عندما يبرز في عينَي فجأة البحر المتألق، ذلك اللون الأزرق البروسي المؤلم، تهدأ تدريجيًّا آلام القلب المحترق حد التقيح ـ والتي كنتُ أمنعها بصعوبة من أن تجعلني مجنونة ـ وكأنها لم تكن.

لكن مع وجود مثل تلك اللحظة المؤقَّتة التي كدتُ أُجنُّ فيها، يبدو أن الزمن قد حل كل المشكلات بيننا وجعلها مقبولة. مثلما تبرد قطعة ساخنة من الحديد، عندما تعاملني ببرود أرد أنا أيضًا ببرود من دون أن أُهزم، وعندما أعاملك ببرود تُكمل أنت الدائرة وتزداد برودًا أكثر فأكثر، وهكذا تأسس بيتنا

الحالي، شديد البرودة مثل ملمس أهداب متجمدة. بيتنا! كلَّا، لم تكن به تلك الرائحة الإنسانية الحارة. أعتقد أنك أيضًا توافقني على أنه من الأنسب أن نسميه «قلعة». وعندما أفكر، فقد ظللنا بضعة عشر عامًا، أنت تخدعني وأنا أخدعك (ولكنك كنتَ البادئ بذلك)، ونحن محاصران داخل تلك القلعة. يا لهذا الإنسان الذي يعقد صفقات محزنة! لقد تأسست حياتنا معًا على هذين السرَّين اللذين يخفيهما أحدنا عن الآخر. تُقابل أفعالي الشنيعة العديدة أحيانًا بالاحتقار، وأحيانًا بالاستياء، وأحيانًا بالتجاهل التام، وعلى وجهك علامات الحزن. كنتُ كثيرًا ما أنادي الخادمة من غرفة الاستحمام بصوت عالٍ قائلة: «أحضري لي سجائر»، وكنتُ أُخرج من حقيبة يدي برنامج العرض السينمائي بعد رجوعي إلى البيت وأهوِّي به على صدري. ثم أرش رذاذ عطر «أوبيجان» في غرفة الضيوف وفي ممرات البيت من دون أي اعتبار للمكان. أضع سماعة الهاتف ثم أرقص رقصة الفالس. أدعو نجمات فرقة تاكارازوكا المسرحية وأقيم لهن مأدبة طعام وألتقط صوري وسطهن. أرتدي المعطف النصفي وألعب الماجونج. وفي عيد ميلادي أجعل الخادمات يضعن شرائط الفيونكة وأدعو

الطلاب فقط في حفل صاخب. كنتُ أعرف على الأقل إلى أي درجة تسبب لك مثل هذه الأفعال الضيق والانزعاج. ولكن لم يحدث، ولو مرة واحدة، أن وبَّختني بعنف على سلوكي هذا، أو أنك لم تستطع، وبالتالي لم يقع بيننا شجار. حافظَت القلعة على هدوئها، فقط الهواء المحبوس داخلها بإخلاص يضطرب بخشونة مريبة، باردًا مثل رياح الصحراء. لماذا لم تطلق على قلبي النيران على الرغم من مهارتك في صيد طيور التَّدْرُج اليابانية واليمام المطوق ببندقية الصيد؟ إن كنتَ عازمًا على خداعي حقًّا، فلماذا لم تفعل ذلك بوحشية وقسوة حتى النهاية؟ مع أن المرأة يمكنها أن تصبح إلهًا حقيقيًّا من خلال كذب الرجل عليها!

* * *

لكن حتى إن تحملنا طريقة العيش هذه معًا لبضعة عشر عامًا، فقد حان وقت نهاية الصفقة! سيأتي شيء! سيحدث أمر! أعتقد أن مثل هذا الأمل كان يسكن في مكان ما من قلبي سرًّا، خفيفًا ولكن بإلحاح! في حالتنا لم يكن يمكن التفكير إلا في طريقتَين فقط تأتي بهما النهاية: أن أقف يومًا ما فجأة، وأنا أغمض عينَي بهدوء، وأرمي نفسي في حضنك، أو أن أغرز في قلبك، بكل قوتي،

السكين التي أحضرتها لي هدية معك من رحلتك إلى مصر، وأجعلها تصنع نافورة ضخمة من الدماء.

أي نهاية من هاتين النهايتين تعتقدُ أنني كنتُ أفضلها؟

في الحقيقة أنا نفسي لا أدري!

أجل، أجل، لقد مر على ذلك خمس سنوات! لقد حدث ما يلي. تُرى هل تذكر ذلك؟ أتذكَّرُ، إن صدقت ذاكرتي، أن ذلك كان بعد عودتك من جنوب شرق آسيا. بتُّ ليلتين خارج البيت ورجعتُ في نهار اليوم الثالث وأنا في حالة سُكْر خفيفة وأترنح في المشي. كنتُ أظن أنك في رحلة عمل إلى طوكيو، إلا أنك، لسبب ما، كنتَ قد عُدت. كنتَ تجلس في غرفة المعيشة وحيدًا تنظف بندقية الصيد. قلتُ فقط كلمة واحدة هي: «لقد عدتُ»، ثم ذهبتُ إلى طرف الحديقة، وجلستُ على الأريكة أعطيك ظهري، وعرَّضتُ جسدي للهواء البارد. كان جزء من باب الغرفة الزجاجي المطل على الحديقة قد تحول إلى مرآة تعكس جزءًا من الغرفة، بسبب درجة ميل المظلة الموضوعة فوق منضدة الطعام الخارجية تحت الإفريز، فانعكست عليها صورتك وأنت تنظف سبطانة البندقية بقطعة قماش بيضاء. وقد سقطتُ في مشاعر كئيبة

كريهة بعد إرهاق اللعب المفرط ولا أرغب في تحريك إصبع واحدة، ثم تأملتُ حركاتك التي يعكسها الزجاج وأنت لا تعيرني انتباهًا. أنهيتَ تنظيف السبطانة جيدًا، ثم ركَّبت عليها الأجزاء التي كنتَ قد نظفتها أيضًا، ثم رفعتَ البندقية وأنزلتها عدة مرات وأنت تضعها على كتفك في وضع الرمي، وفي مرة وضعتَها على كتفك ولم تحركها، وأغمضتَ إحدى عينيك قليلًا تحدد هدفك. وعندما انتبهتُ فجأة وجدتُ أن فوهة البندقية موجهة بوضوح إلى ظهري.

تُرى هل كنتَ تنوي إطلاق النار عليَّ؟ وحتى وإن كانت البندقية بلا رصاص، فأنا مهتمة أن أعرف أكانت لديك في تلك اللحظة نية قتلي أم لا؟ تظاهرتُ بالجهل وأغمضتُ عينَي. تُرى هل كنتَ تستهدف كتفي؟ أم مؤخرة رأسي؟ أم قفاي؟ كنتُ أنتظر بفارغ الصبر أن يتردد صوت الزناد في الهواء البارد للغرفة الهادئة. ولكنه لم يتردد، مهما مر من وقت، مع أنني كنت مستعدة نفسيًّا لتمثيل دور الإغماء في لحظة تردده، وكأنه هدف حياتي الذي تحقق بعد انتظار سنوات طويلة.

نفد صبري ففتحت عينَي بهدوء، ووجدتك ما زلتَ تسدد فوهة البندقية تجاهي. ظللتُ في الوضع نفسه لفترة، ولكني فجأة، لسبب ما،

شعرتُ بغباء الموقف، فحركتُ جسمي قليلًا، وعندما نظرتُ إليك شخصيًّا وليس إلى صورتك في المرآة، نقلتَ أنت بهدوء فوهة البندقية أفقيًّا من ظهري، وجعلتَ هدفك شجرة الورد في الحديقة التي زهَّرت هذا العام لأول مرة بعد أن نُقِلت من جبل أماغي، وعندها تردد أخيرًا صوت الزناد. لماذا لم تطلق وقتها البندقية على زوجتك الخائنة؟ لو أطلقتَ عليَّ النار وقتها لكنتُ استحققت ذلك. كنتَ تملك رغبة كافية في القتل، ومع ذلك لم تضغط على زناد البندقية! لو ضغطتَ على الزناد، لو لم تغفر لي خيانتي، لو ألقيتَ بوضوح غضبك وكراهيتك داخل قلبي، لربما ارتميتُ على صدرك، على غير المتوقع، أبكي في براءة. أو على النقيض من ذلك، لربما كانت النتيجة أن أظهرتُ أنا لك الطريقة المثلى لضرب النار. في كلتا الحالتين، ولأنه لم يحدث ذلك عندما أشحتُ بنظري بعيدًا عن الزهرة التي افتدت حياتي، تركتُ المكان بخطوات مترنحة أكثر من اللازم وأنا أغني: «تحت أسطح باريس» أو أغنية شبيهة.

* * *

لكن بعد ذلك لم تسنح الفرصة لمثل هذه النهاية. مرت السنوات، وفي صيف هذا العام، احمرَّت زهور السوسن الأحمر في الحديقة

احمرارًا فاقعًا لم يحدث لها من قبل. فكانت مشاعري مفعمة بالأمل بحدوث تغيير ما في حياتي.

آخر مرة ذهبتُ فيها لزيارة سايكو في مرضها كانت في اليوم السابق لوفاتها. وقتها رأيت مرة أخرى ذلك المعطف الرمادي الحريري، بعد مرور بضعة عشر عامًا من دون أن أتخيل حدوث ذلك. هو نفسه من دون شك الذي انطبع في شبكية عينَي مثل الكابوس وسط أشعة شمس الصباح البرَّاقة في أتامي. برزت زهرة القصوان الأرجوانية واضحة جلية، تقبع بثقل فوق كتف محبوبتك النحيلة. في اللحظة التي دخلتُ فيها الغرفة وجلستُ، قلت لها:

ـ يا لكِ من جميلة!

ثم حاولت أن أُهدِّئ من مشاعري، فكرتُ في ماهية مشاعر تلك المرأة التي جعلتها تظهر أمامي الآن مرتدية ذلك المعطف نفسه، شعرتُ في اللحظة نفسها بأن الدماء تنتفض داخل جسدي كله في صخب من دون أن أستطيع السيطرة عليها، وعرفت أن أي محاولة لضبط النفس مآلها الفشل. يبدو أنه قد حان الوقت لتقف أمام محكمة القضاء خيانة امرأة سرقت زوج صديقتها المقربة، وتواضع عروس في العشرين من عمرها.

أخرجتُ سرِّي الذي حافظتُ عليه على مدى عشر سنوات فلم أبُح به حتى إلى نفسي، ووضعته بهدوء أمام زهرة القصوان:

ـ هذا المعطف له ذكريات جميلة.

ـ ماذا؟!

صاحت بصوت لا يتبين هل يُسمع أو لا يُسمع ثم نظرت تجاهي، فنظرتُ مباشرة إلى عينيها. ولم أبعد عينَي عنها قَطُّ، لأنه من الطبيعي أنها هي التي يجب عليها أن تبعد عينيها خجلًا.

ـ لقد كنتِ ترتدينه عندما ذهبتِ مع ميسوغي إلى أتامي، أليس كذلك؟ أنا آسفة! لقد رأيتكما في ذلك اليوم!

ثم بدأت الدماء تنسحب من وجهها تدريجيًّا، وظلت عضلات فمها تختلج ـ أو هكذا شعرتُ في الواقع ـ ولكنها في النهاية لم تستطع أن تنطق بحرف، فطأطأت رأسها ونظرت صامتة إلى يديها الموضوعتين فوق ركبتيها.

وفجأة شعرتُ كأنني أستحم تحت الدُّش، متعة، كأنني قد عشتُ مدة بضعة عشر عامًا من أجل هذه اللحظة الممتعة! ثم في جزء مختلف من قلبي خطر لي نوع من المشاعر الحزينة لا يمكن أن أصفها، بمجيء واحدة من النهايتين الآن آخذة شكلًا واضحًا أمام

عينَي. بقيتُ فترة طويلة هكذا. لا مانع من الجلوس هكذا وكأنني قد أرسيت لي جذورًا في هذا المكان. على الأرجح أنها كانت تود لو أنها تبخرت في الهواء. هذه المرأة! وخلال ذلك لم أعلم فيما كانت تفكر، ولكنها رفعت وجهها الذي يشبه الشمع وظلت هذه المرة تحملق إلى وجهي طويلًا. عرفت عندها أن هذه المرأة سوف تموت. كان الموت قد قفز في تلك اللحظة إلى داخل جسدها. ولولا ذلك لما استطاعت أن تنظر إليَّ بتلك النظرات. كانت الحديقة تُظلم فجأة لوجود غيوم، ثم تشرق مرة ثانية، وفجأة توقف تمامًا صوت البيانو الذي كان يُسمع حتى ذلك الوقت من بيت الجيران، فقلتُ لها:

ـ لا عليكِ! فأنا لا أعبأ مطلقًا بالأمر، سوف أمنحكِ إيَّاه مجددًا!

قلتُ ذلك ونهضتُ واقفة، وأخذتُ في يدي الوردات البيضاء التي كنتُ أتيت بها ووضعتها عند حافة حديقة البيت. وضعتُها في مزهرية فوق رفوف الكتب، وأصلحت من شكلها قليلًا، ثم نقلت عينَي مرة أخرى إلى أسفل، إلى قفا سايكو الرقيق المطأطئ، وأنا أفكر: على الأرجح هذه هي آخر مرة أرى فيها تلك المرأة (يا لها من نبوءة مخيفة). وقلتُ لها:

ـ يجب عليك ألا تقلقي أبدًا. فحتى أنا ظللتُ أخدعك على مدى بضعة عشر عامًا. الأمر بيننا سيان.

ثم ضحكتُ ضحكة سريعة من دون وعي مني. كم كان ذلك الصمت رائعًا! جلست تلك المرأة في هدوء تام، ولم تنطق بكلمة واحدة من البداية إلى النهاية، حتى كأنها توقفت عن التنفس. انتهت المحاكمة! إنها حرة الآن فيما تفعله.

ثم غادرتُ الغرفة مسرعة وأنا أرفرف بأكمام الكيمونو، بزهو كنت حتى أنا أنتبه له.

ـ ميدوري!

هكذا سمعت من خلفي أول كلمة نطقت بها تلك المرأة ذلك اليوم، ولكنني انعطفت في الممر.

ـ خالتي! إن وجهك في منتهى الشحوب!

بعد أن لفتت انتباهي هكذا شوكو، التي جاءت حاملة الشاي في الممر، عرفتُ لأول مرة أن الدماء انسحبت من وجهي.

أعتقد أنك فهمتَ الآن مشاعري، التي تملي عليَّ أنه من الضروري الانفصال عنك، أو بمعنى أصح مشاعر أنك لن تقدر إلا على الانفصال عني. لقد كتبتُ طويلًا عديدًا من الأمور الوقحة تجاهك، ولكن حان الآن الوقت

لكي تنزل الستارة على الصفقة الحزينة التي استمرت بيننا لبضعة عشر عامًا. أعتقد أنني انتهيت من قول ما أردت قوله. وأرجو أن يصل إليَّ منك رد بالموافقة على الطلاق بيننا في أثناء إقامتك في إيزو إن أمكن ذلك.

* * *

أجل، أجل. في النهاية سوف أُعلمك بخبر نادر! لقد نظفتُ اليوم غرفة مكتبك المنفصلة، بديلًا من الخادمة، بعد انقطاع سنين طويلة. وقد انبهرتُ من أنها غرفة مكتب تثير السكينة جدًّا. فالجلوس على المقعد الطويل مريح للغاية، والمزهرية المصنوعة من خزف نينسيه الشهير فوق رفوف الكتب تؤتي بثمارها الجيدة، وكأن هذا المكان فقط يشتعل بالزهور الحية. لقد كتبتُ هذه الرسالة على ذلك المكتب. لكن لوحة جوجان لا تُظهر جمالها الأخاذ مع هذه الغرفة، وأتمنى لو تسمح لي أن آخذها لأُزين بها فيلا ياسيه، ولذا سمحتُ لنفسي أن أنزعها من ذلك المكان ووضعت بدلًا منها لوحة لمنظر الثلوج للفنان فلامينك. ثم رتبت خزانة الملابس الغربية، فأخرجتُ ثلاث بدلات شتوية ومعها ثلاث من أربطة العنق على ذوقي، ولا أدري هل ستحبها أم لا!

رسالة سايكو
(وصيتها بعد وفاتها)

عندما تقرأ هذه الرسالة لن أكون في هذا العالم. أنا لا أعلم ما حقيقة الموت، لكن على أي حال، من المؤكد أنه لم يعد هناك وجود في هذا العالم لسعادتي ومعاناتي وقلقي. ستنعدم على هذه الأرض مشاعري الكثيرة التي أفكر فيك خلالها، وكل المشاعر التي تنفجر داخلي مرة بعد أخرى وأنا أفكر في شوكو. سيزول جسدي وتنعدم روحي.

ومع ذلك، بعد أن أموت وأصبح عدمًا ستقرأ أنت رسالتي هذه، على الأرجح بعد ساعات أو بعد أيام. وحينها ستُبلغك هذه الرسالة بمشاعري التي أشعر بها الآن، وأنا ما زلتُ حية. إن هذه الرسالة ستتحدث إليك ـ بلا أي تغيير عن حديثي إليك وأنا حية ـ عن كثير من أفكاري ومشاعري التي لا تعرفها أنت بعد. على الأرجح ستصيخ بأذنك إلى صوتي في الرسالة كما كان يجري حين نتحدث معًا في أثناء حياتي، فتندهش وتحزن وتوبخني. إلا أنك على الأرجح لن تذرف الدموع، بل فقط

ستبدو على وجهك ملامح الحزن الشديد التي لا يعرفها أحد غيري (ولا تعرفها ميدوري بتاتًا)، وربما تقول: «يا لكِ من حمقاء!» وسوف أرى ذلك وأسمعه بوضوح تام.

إذن عند التفكير بهذه الطريقة، نجد أن الوصية شيء عجيب! فعلى الرغم من موتي، ستبقى روحي الحية مختفية سرًّا داخل هذه الرسالة حتى وقت قراءتك لها. ستشتعل روحي وتنبعث في حيوية ونشاط في اللحظة التي تفتح فيها ظرف الرسالة وتقع عيناك على أول حروفها، ثم ستملأ مشاعري المتنوعةُ روحَك تمامًا لخمس عشرة أو عشرين دقيقة حتى تنتهي من آخر حروفها، بالضبط مثلما كنتَ وأنا على قيد الحياة. تمتلئ نفسي بالرغبة في أن أُظهِر لك على حقيقتي من خلال هذه الروح الحية المكنونة داخل الوصية، حتى لمجرد خمس عشرة أو عشرين دقيقة فقط، أجل على الأقل خلال تلك المدة القصيرة فقط. من المرعب قول ذلك لك بعد كل هذا العمر، ولكن يبدو أنني لم أُظهِر لك جوهري الحقيقي في أثناء حياتي. إنني أكتب هذه الرسالة وأنا بجوهري الحقيقي. أجل، ذاتي الحقيقية!

أمام عينَي الآن جمال أوراق شجر الغابات بألوانها الزاهية الحمراء والصفراء، التي

تغطي جبل تنوزان بمنطقة يامازاكي في أثناء أمطار أواخر الخريف. تُرى لماذا كانت بتلك الروعة والجمال؟ لقد انبهرنا بذلك الجمال معًا عندما نظرنا عاليًا تجاه جبل تنوزان الذي اعترض مجال رؤيتنا بضخامة سطحه، المائل ميلًا مفاجئًا خلف المحطة مباشرة، ونحن نحتمي من أمطار الخريف تحت سقف البوابة القديمة المغلقة لمحل تقديم الشاي المشهور «ميوكي أنْ» الواقع أمام المحطة. تُرى هل كانت دعابة سمجة لذلك الموسم بمزاجه المتقلب في شهر نوفمبر، وقد أوشكت الشمس على الغروب؟ أم أنها نتيجة الطقس الفريد لذلك اليوم من أواخر الخريف، حيث تكررت مرات عديدة زخَّات الخريف القصيرة، حتى بعد أن انتصف النهار؟ كان الجبل بأكمله جميلًا جمالًا متنوعًا وكأننا نرى حلمًا، لدرجة جعلتنا نحن الاثنين نتخوَّف من أن نذهب ونتسلقه حتى قمته. لقد مرت ثلاثة عشر عامًا على ذلك اليوم، ولكن بُعث الآن أمام عينَي ذلك الجمال الذي يشبه تغلغلنا وسط أوراق الغابة البرية زاهية الألوان.

في ذلك اليوم كنا معًا نحن الاثنين بمفردنا لأول مرة. جرجرتني خلفك منذ الصباح الباكر من ضاحية إلى أخرى من ضواحي كيوتو، حتى تعبتْ جدًّا بدنيًّا ونفسيًّا، وعلى الأرجح

تعبت أنت أيضًا. فقد قلتَ، ونحن نتسلق طريقًا ضيقًا صاعدًا بدرجة ميل شديدة في جبل تنوزان، كلامًا سخيفًا من نوع: «إن الحب هو التعلُّق! لن أكون سيئًا إن تعلقتُ بكوبٍ من الخزف، أليس كذلك؟ إذن لماذا أكون سيئًا إن تعلقتُ بكِ؟ ثم إن من رأى جمال ألوان جبل تنوزان هو أنا وأنتِ فقط. أنا وأنتِ فقط بمفردنا رأيناه معًا. ولا يمكن محو ذلك والعودة إلى الوراء».

كان ذلك إرهابًا يجعلك تشبه طفلًا لحوحًا.

طوال ذلك اليوم كنتُ أحاول، بأعصاب متوترة ومشدودة، أن أهرب منك مهما كلفني الأمر، ولكن كلماتك اليائسة المتهورة تلك جعلتني أنهار وأتراجع، كأنني رُكلت لأطير في الهواء فجأة. إن الحزن النابع من إرهابك وكلماتك الفظة تلك قد بلور، في جميع أنحاء جسدي، السعادة التي تحلم بها المرأة في أن تُحَب مثل زهرة.

إن ذاتي التي لم تستطع، مهما فعلت، أن تغفر لزوجي كادوتا هفوته، كان من السهل عليها جدًّا أن تغفر لنفسها خيانتها.

* * *

أول مرة استخدمتَ فيها كلمة «شرير» كانت لمَّا قلتَ لي في فندق أتامي:

ـ لنكن شريرَين...

هل تتذكر ذلك؟ في ليلة ذات رياح عاتية، ظلت النوافذ المطلة على البحر تقعقع طوال الليل بلا انقطاع. وعندما فتحتَ تلك النافذة لإصلاحها، رأينا قارب صيد يحترق في عرض البحر، وترتفع منه نيران مستعرة بلهب أحمر كأنها أضواء المشاعل. كان واضحًا أن ثمة أرواحًا بشرية في ذلك القارب تواجه خطر الموت، ومع ذلك لم نشعر بأي قدر ولو قليلًا من الخوف، بل وحده جمال المشهد انعكس في أعيننا. ولكن عندما أغلقتَ النافذة، شعرتُ أنا بالقلق فجأة. فأسرعتُ بفتحها من جديد، ولكن عندها بدا أن القارب قد احترق بالكامل، فلم أستطع أن أرى أي نيران فوق سطح البحر؛ امتد فقط ظلام البحر في هدوء وسكينة.

كنتُ حتى تلك الليلة أبذل كل جهودي للابتعاد عنك. ولكن عندما رأيت ذلك القارب يحترق، سيطر على عقلي شعور بالقدر المحتوم. وعندما قلتَ لي:

ـ لنكن شريرَين، ألا تساعديننني لكي نخدع ميدوري طوال العمر؟

كان ردي من دون تردد أو حيرة:

ـ إن كنا سنصبح شريرَين، فلنصبح شريرَين

كبيرَين. لا نخدع ميدوري فقط، بل نخدع العالم بأكمله حتى النهاية.

نمتُ ليلتها نومًا عميقًا هانئًا، لأول مرة منذ أن بدأتُ ألتقيكَ سرًّا.

في ذلك القارب الذي احترق بالكامل في عرض البحر من دون أن يدري به أحد في تلك الليلة، شعرتُ بأنني أرى مصير مشاعرنا العاطفية الذي لا نستطيع فعل أي شيء حياله. يبرز منظر ذلك القارب الزاهي، وهو يتأجج محترقًا في ظلام الليل، أمام عينَي وأنا أكتب هذه الوصية. ما من شك أن ما رأته عيناي في تلك الليلة في عرض البحر هو منظر روح امرأة تتلوَّى ألمًا في لحظة دنيوية خاطفة.

* * *

لا جدوى من استرجاع مثل هذه الذكريات. إن مدة الثلاثة عشر عامًا التي بدأت منذ هذا الحدث كانت ممتلئة بالعذاب والمعاناة، ولكنني كنتُ خلالها سعيدة أكثر من أي شخص آخر، بل كانت سعادة مفرطة وأنا أتمرَّغ في عطفك وحبك الكبير غير المنقطع.

لقد جربتُ اليوم، نهارًا، أن أقلب في يومياتي. ولفتت انتباهي فيها كثرة ظهور كلمات «الموت» و«الإثم» و«الحب»، وشعرتُ بأنها

تُعْلمني الآن، بعد فوات الأوان، أن الشهور والسنين التي قضيتها معك لم تكن بتلك السهولة. ومع ذلك، عندما وضعت دفتر اليوميات في راحة يدي، كان ثقلها هو ثقل السعادة بعينها. طاردني باستمرار وعيي بالإثم، وأنا أكتب: «إثم، إثم، إثم»، «عندما تكتشف ميدوري الأمر لا سبيل لي إلا الموت»، «إذا عرفت ميدوري فليس أمامي إلا الموت اعتذارًا إليها»، هكذا كنتُ أحدِّق بجدية إلى شبح الموت كل يوم، في لعبة التحديق المتبادل، لكن كان ذلك يدل أكثر على ضخامة السعادة التي أشعر بها.

* * *

آه! تُرى من الذي يمكنه تخيل وجود «أنا» أخرى خلاف «الأنا» تلك؟ (ربما يبدو لك هذا الوصف تكبرًا، ولكنني لا أدري وصفًا سواه). أجل، لقد كانت تسكن داخلي «أنا» أخرى لا أعرف حتى أنا عنها شيئًا. وأنت أيضًا لا تعرفها ولا تستطيع أن تتخيل وجودها.

لقد قلتَ لي ذات يوم:

ـ إن كل إنسان تسكن داخل جسده أفعى.

فقد حدث ما يلي عندما ذهبنا للقاء البروفيسور تاكيدا في كلية العلوم بجامعة كيوتو. في أثناء لقائك مع البروفيسور، كنتُ

في أحد أركان الممر الطويل لذلك المبنى الكئيب المبني بالطوب الأحمر، أقتل الوقت وأنا أنظر إلى عينات أفاعٍ متراصة معروضة هناك. وعندما خرجتَ أنتَ من الغرفة بعد مرور نصف ساعة تقريبًا، كنتُ أنا في الظل مصابة بغثيان خفيف سبَّبته لي الأفاعي، فداعبْتَني وأنت تنظر إلى تلك العينات:

ـ هذه سايكو، وتلك ميدوري، وذاك أنا، إن كل البشر يملكون أفعى داخل كل منهم، فما من مبرر للخوف منها!

كانت أفعى ميدوري من جنوب شرق آسيا، صغيرة الحجم بلون بني قاتم، والتي قلتَ عنها إنها أنا كانت أفعى أسترالية صغيرة الحجم كذلك، ولكنها تمتلئ ببقع ناصعة البياض في كل أنحاء جسمها، ورأسها فقط مسنون وحاد مثل المثقاب. تُرى ماذا قصدتَ بقولك هذا؟ لم يحدث أن تحدثنا معًا بعدها عن الأمر، ولكن كلامك هذا تردَّدَ في صدري بصدى مريب، وظل في ذاكرتي، وكنتُ من حين إلى آخر أفكر وحدي: تُرى ما الأفعى التي تسكن كل إنسان؟! أحيانًا تكون التعلُّق بالذات، وأحيانًا أخرى الغيرة، وفي أحيان أخرى تكون القدر.

إنني حاليًّا لا أفهم ما معنى الأفعى تلك! ولكن على أي حال وكما قلت أنت وقتها، فإن ثمة

أفعى تسكن جسدي. ظهرت تلك الأفعى اليوم أمامي لأول مرة. من المؤكد أن «الأفعى» هو الاسم الوحيد الذي يليق بتلك «الأنا» الأخرى التي لا أعرفُها.

* * *

حدث ما يلي اليوم بعد الظهيرة. في الوقت الذي زارتني فيه ميدوري في مرضي، كنتُ أرتدي ذلك المعطف الحريري رمادي اللون، الذي كان أحب ملابسي إلى نفسي منذ شبابي، وكنتَ قد طلبتَه أنتَ خصوصًا من أجلي من إقليم ميتو قبل زمن بعيد. عندما دخلت ميدوري غرفتي ووقعت عيناها على ذلك المعطف، ذُهلَتْ وكانت على وشك أن تقول شيئًا، ولكنها نطقتْ بكلمة واحدة:

ـ آه.

ثم توقفت، وجلست لفترة في صمتٍ مطبق. أما أنا فظننتُ أن ميدوري، ذات الذوق الرفيع، قد هالها سوء اختياري لهذا المعطف البعيد عن الذوق العام قليلًا، ولكنني برغبة في معاكستها بمرح تعمدتُ أنا أيضًا السكوت.

وعندها ألقت ميدوري نظرة باردة وغريبة نحوي، ثم قالت:

ـ إن هذا المعطف الذي كنتِ ترتدينه عندما ذهبتِ مع ميسوغي إلى أتامي، أليس كذلك؟

لقد رأيتكما يومها.

وبعد المفاجأة، وجدتُ أن وجهها شاحب من التفكير، وكانت كلماتها تطعن جسدي كالخنجر.

لم أستطع أن أفهم على الفور ماذا تعني كلمات ميدوري تلك. ولكن عندما برقت أهمية معناها في عقلي الباطن، أغلقت ملابسي على صدري من دون قصد محدد، ثم اعتدلت في جلستي وكأنه وجب عليَّ فعل ذلك.

إنها تعرف كلَّ شيء! بل تعرفه منذ أمدٍ بعيد!

من العجيب أن أفكاري كانت هادئة وكأنني عند البحر، أنظر إلى مده يأتي من بعيد في وقت الغروب. شعرتُ بالرغبة في مسك يدها ومواساتها بالقول: «آه، لقد كنتِ تعرفين! تعرفين كل شيء!». لقد جاءت حقًّا تلك اللحظة التي كنتُ أخافها وأرتعب بشدة من قدومها، ولكن لم يأتِ معها أي أثر للخوف أو الرعب. كان يملأ الفجوة بيننا فقط صوت ماء البحر الهادئ الذي يشبه الشاطئ. نُزع حجاب السر الذي كان بيننا لمدة ثلاثة عشر عامًا في لحظة بلا اعتراض، ولم يغْنِ ذلك الموت الذي كان يستغرق كل تفكيري. كيف يمكنني شرح ذلك؟ هدوء وسلام، أجل إنه كذلك، كانت

راحة من نوع عجيب. لقد اطمأن قلبي. زال الحِمل الثقيل المظلم الذي حملته على كاهلي زمنًا طويلًا، ومقابل ذلك لم أجد إلا أنني وُضعت في فراغ عاطفي غريب، يثير الرغبة في البكاء. شعرت بوجود كثير من الأمور يجب عليَّ التفكير فيها. لكنها لم تكن قاتمة وحزينة ومخيفة، بل كانت عدمية، ورحبة بلا جدوى، ومع ذلك كانت أمورًا هادئة قانعة. لقد كنتُ بالتأكيد ثملة بمشاعر من نوع السَّكرة التي يمكن القول عنها إنها تشبه التحرر والانعتاق. كنتُ أجلس شاردة، مذهولة، أنظر إلى عينَي ميدوري (ومع ذلك لم أكن أرى شيئًا). ولم يصل إلى أذنَي ما كانت تقوله.

وعندما انتبهتُ، كانت قد تركت غرفتي وذهبت تمشي في الممر بخطوات مضطربة.

ناديتها:

ـ ميدوري!

تُرى ما سبب ندائي لها؟ حتى أنا لا أفهم. ربما كنتُ أريد منها أن تجلس أمامي وقتًا أطول، أن تجلس إلى الأبد! ولو عادت لربما قلتُ لها ببراءة ومن دون تصنُّع: «ألا تمنحينني السيد ميسوغي رسميًّا؟».

أو لربما قلتُ لها العكس تمامًا: «لقد حان

الوقت لكي أعيد إليكِ السيد ميسوغي!».

حسنًا، إنني لا أستطيع أن أخمن أي كلمات كنتُ سأنطق بها! فلقد ذهبت ميدوري في طريقها ولم تعد.

«فلأنتحر عندما تعرف ميدوري!». يا له من تفكير خيالي مُضحك! إثم، إثم، إثم، يا له من وعي عابث بالإثم! إن الإنسان الذي باع روحه للشيطان مرة، على الأغلب ليس أمامه في النهاية إلا أن يكون شيطانًا. هل كنتُ على مدى ثلاثة عشر عامًا أخدع الرب، بل أخدع حتى نفسي؟

نمت بعدها نومًا عميقًا. وعندما استيقظتُ وشوكو تهزني، كانت كل مفاصل عظامي تؤلمني لدرجة أنني لم أقدر على الحركة، كأن تعب ثلاثة عشر عامًا قد ظهر دفعة واحدة. وعندما انتبهت، وجدت خالي من مدينة أكاشي يجلس بجوار فراشي. أنت أيضًا سبق أن قابلته مرة واحدة، خالي الذي يعمل في تلقي تعاقدات حكومية من الباطن، لقد انتهز فرصة مجيئه إلى أوساكا في عمل، وقرر أن يزورني في مرضي زيارة قصيرة، لا تزيد على ثلاثين دقيقة. تحدث إليَّ خالي حديثًا عابرًا بلا ترابط ثم رحل فورًا، لكنه قال لي وهو يعقد رباط حذائه عند مدخل البيت:

ـ لقد تزوج كادوتا.

كادوتا! تُرى كم سنة مرت لم أسمع فيها هذا الاسم؟ ولا داعي لذكر أن «كادوتا» هذا يقصد به زوجي السابق الذي انفصلت عنه؛ ريئتشيرو كادوتا. كلمة قالها خالي بلامبالاة، لكن صداها تردد بقوة داخلي.

فقلت بصوت حتى أنا أدركت أنه يرتعش:

ـ متى؟

ـ الشهر الماضي أو ربما الشهر الذي قبله. وسمعت أنه بنى له بيتًا بجوار مستشفاه في هيوغو.

ـ حقًّا؟

كان هذا أقصى ما استطعت قوله.

غادر خالي البيت، ثم حملت قدمَي في الممر ببطء خطوة بعد خطوة، لكن في منتصف الطريق تشبثتُ بعمود الغرفة، وشعرت بدوار كأن جسمي سيسقط فجأة على الأرض. تشبثَتْ يدي بالعمود بقوة أكبر، ونظرت وأنا واقفة إلى المنظر في الخارج من خلال زجاج النافذة، وعلى الرغم من هبوب الرياح واهتزاز الأشجار، فإن الهدوء كان مستفزًّا، يشبه عالم المياه الذي يُرى خلف الزجاج في متاحف الأحياء المائية.

ـ آه! فات الأوان!

تجاه تلك الكلمة التي خرجت من فمي ولا أعرف حتى أنا ماذا أعني بها، قالت شوكو التي لم أنتبه لوقوفها بجواري:

ـ ما الذي فات أوانه؟

ـ شيء ما ولكنني لا أعرفه.

وعندما ظننت أنني أسمع صوت ضحكات مكبوتة، كانت يد شوكو تسندني بخفة من خلف ظهري:

ـ ما الذي تقولينه؟ ما رأيك في العودة إلى الفراش؟ هيا!

هكذا حثَّتني شوكو، فوصلتُ إلى الفراش بخطوات ثابتة نسبيًّا، ولكن ما إن جلست على الفراش حتى شعرتُ بأن كل شيء من حولي قد انهار في وقت واحد، مثلما يفعل الطوفان. استلقيت وأنا جالسة على جنبي، ووضعت يدَي فوق الغطاء، ومع ذلك تحاملت على نفسي في أثناء وجود شوكو، ولمَّا ذهبت شوكو إلى المطبخ، نزلتْ أنهارٌ من الدموع على خدَّي.

لم يسبق لي أن تخيلت أن مجرد زواج كادوتا قد يُحدث مثل هذه الصدمة الكبرى. تُرى ما سبب ذلك؟ تُرى كم من الوقت مر؟ فجأة رأيت، من خلال الزجاج، شوكو وهي تحرق أوراق الشجر الذابلة في الحديقة. غربت

الشمس بالفعل، وكان غروبًا هادئًا لم يسبق لي أن رأيت مثله في حياتي كلها.

ـ آه! لقد حان وقت حرق الأوراق الذابلة بالفعل!

قلت ذلك بصوت خفيض وأنا أنهض، إذ أحسست كأن ذلك فعل مقرر ومعروف موعده من قبل، فأخرجت يومياتي من درج مكتبي العميق. إن شوكو قد بدأت حرق أوراق الشجر الذابلة في الحديقة من أجل حرق يومياتي هذه. لماذا يُفترض أن يكون الأمر غير ذلك؟ عندما حملتُ تلك اليوميات وخرجتُ إلى حافة الحديقة، جلستُ على الكرسي الخيزران هناك، وأخذتُ أقرأ مقتطفات منها لبعض الوقت. اليوميات التي تتكرر فيها كلمات «الإثم» و«الموت» و«الحب». سجِلُّ اعترافات الشريرة. إن حروف «الإثم» و«الموت» و«الحب»، التي نقشتُها حرفًا حرفًا على مدى ثلاثة عشر عامًا، يليق بها أن ترتقي إلى السماء مع الدخان الأرجواني لأوراق الشجر التي تحرقها شوكو الآن.

عندما أعطيت شوكو اليوميات، كنتُ قد قررت الموت. رأيت أنه قد حان الوقت الذي يجب عليَّ أن أموت فيه. في هذه الحالة قد يكون قول «إنني فقدتُ القدرة على الحياة»

أكثر صوابًا من قول «إنني قررت الموت».

لقد ظل كادوتا بلا زوجة طوال الوقت بعد انفصاله عني. وكان ذلك لمجرد أنه فقد فرصة الزواج مجددًا بسبب ذهابه للدراسة خارج اليابان، ثم ذهابه إلى جنوب شرق آسيا في أثناء الحرب، ولكن مهما كان الأمر، فإنه لم يستقبل زوجة أخرى بعد فراقي. عندما أفكر الآن في حقيقة أنه استمر في حياة العزوبية، أشعر كأن ذلك كان سندًا كبيرًا غير مرئي لي كأنثى للاستمرار على قيد الحياة. ومع قولي ذلك ـ ويجب عليك أن تصدقني فقط فيما يلي ـ فإنني بعد أن انفصلت عن كادوتا، فيما عدا سماعي أخبارًا متقطعة عنه من أفواه أقاربي في مدينة أكاشي، لم ألتقِه قَطُّ، ولم تخطر على ذهني حتى الرغبة في لقائه. لقد مرت أعوام عديدة نسيت فيها مجرد حرف الكاف من اسم «كادوتا».

جاء الليل. وذهبت شوكو والخادمة كل منهما إلى غرفتها، ثم أخرجتُ ألبوم الصور من أحد رفوف المكتبة. في ذلك الألبوم بضع وعشرون صورة لي مع كادوتا.

في أحد الأيام، وقد مر على ذلك بضع سنين، قالت لي شوكو:

ـ صورك يا أمي أنت وأبي ملصقة في الألبوم

بحيث يكون الوجهان متقابلين.

واندهشت لذلك. قالت شوكو ذلك وقتها ببراءة، ولكن عندما نظرت إلى الألبوم بعد أن قيل لي ذلك، كانت صورتانا أنا وكادوتا في أثناء الزفاف ملصقتين في صفحتين متواجهتين، وفعلًا عند غلق الألبوم ينطبق وجهانا في الصور كلٌّ منهما على الآخر. وقتها رددتُ عليها فقط بقول:

ـ أوه! ماذا تقولين؟

ولكن ظلت كلمة شوكو وقتها في قلبي على الدوام، أتذكرها فجأة مرة كل عام في أوقات غريبة. لكنني لم أنزع تلك الصور ولم أغير أماكنها، وتركتها كما هي حتى اليوم. لقد فكرت أنه حان الآن وقت نزع تلك الصور من الألبوم. نزعت صور كادوتا من ذلك الألبوم، ووضعتها في ألبوم شوكو الأحمر لكي تحتفظ بها طويلًا ذكرى لأبيها في شبابه.

***

كانت هذه هي «الأنا» الأخرى لي التي لم أكن أعرفها. إن الأفعى الأسترالية الصغيرة التي قلتَ أنت يومًا إنها تسكن جسدي، ظهرت هذا الصباح ببشرتها الرقطاء. وعلى ذكر ذلك فأفعى ميدوري من جنوب شرق آسيا، الصغيرة ذات اللون البني القاتم، هل كانت

تبتلع على مدى ثلاثة عشر عامًا سرنا في أتامي بلسانها الأحمر الذي يشبه السديم، وهي تتصنع الجهل والبراءة؟

تُرى ما نوعية الأفاعي التي تسكن البشر؟ على الأرجح أنها نتيجة أفعالنا التي لا يستطيع المرء التعامل معها بقوته الذاتية، والتي تبتلع حُب الذات والغيرة والمصير المحتوم. من المؤسف عدم وجود فرصة أخرى لكي تُعلمني ذلك الأمر. ومع ذلك يا لها من شيء حزين جدًّا، تلك الأفعى التي تسكن البشر! أتذكر أنني قرأت من قبل في أحد الكتب عبارة «حزن الحياة». والآن وأنا أكتب هذه الرسالة، يتعامل قلبي مع مثل ذلك الحزن البارد الذي لا نجاة منه. آه! ما هذا الشيء الكريه لدرجة لا تُحتمل، والحزين في الوقت نفسه بدرجة لا تُحتمل، الذي يسكن الإنسان؟

لقد واصلت الكتابة حتى الآن، ولكنني أنتبه أنني لم أعلمك بعد بذاتي الحقيقية. عندما أمسكتُ القلم لأكتب هذه الوصية في البداية، كان قراري الحاسم أقل حدة، وكنتُ أحاول الهرب مرارًا من شيء مخيف.

«الأنا» الأخرى التي لا أعرفها! يا لها من مهرب جيد المظهر! لقد قلتُ إنني انتبهتُ اليوم لأول مرة للأفعى الصغيرة البيضاء التي

تسكن جسدي. ولقد كتبتُ أنها ظهرت لأول مرة اليوم. وهذا كذب! إن قلتُ لك ذلك فسيكون هذا كذبًا. لأنني يُفترض أنني انتبهتُ منذ أمد بعيد لوجودها.

* * *

آه! إنني كلما أتذكر ليلة السادس من أغسطس التي تحولت فيها المنطقة بين أوساكا وكوبيه إلى بحر من النيران، يكاد قلبي ينشق من الألم! لقد قضيتُ تلك الليلة أنا وشوكو في المخبأ الذي صممتَه أنت لنا، وفي الوقت الذي غطى فيه الصوت الميكانيكي لسرب طائرات «ب ٢٩»، التي لا نعرف كم مرة أتت، السماء فوقنا، فجأة سقطتُ في هوة سحيقة من الوحدة عديمة الجدوى التي لا يمكن فعل شيء تجاهها. وحدة لا يمكن وصفها مطلقًا، تثير الكآبة في القلب. شعرتُ فقط بوحدة شديدة الوطء. وشعرت بأنني لا أستطيع البقاء جالسة في ذلك المكان، فحاولت وقتها الخروج من المخبأ. ووجدتك واقفًا هناك.

كانت السماء تحترق شرقًا وغربًا بلون أحمر فاقع. لقد هرعتَ مسرعًا إلى بيتنا ووقفت أمام باب المخبأ، على الرغم من أن النيران قد بدأت تشتعل من أحد البيوت المجاورة لبيتك. ثم عدتُ إلى المخبأ وأنتَ معي، ولكن ما إن دخلتُ حتى بكيتُ بكاءً مرًّا بصوت

عالٍ. ويبدو أنكما، أنت وشوكو، ظننتما أن تلك الحالة الهستيرية أصابتني بسبب الرعب. ويبدو كذلك أنني وقتها، ثم فيما بعد، لم أستطع شرح مشاعري شرحًا وافيًا. أرجو أن تغفر لي ذلك. لقد كنتُ وقتها، مع ما كنتَ تغمرني به من مشاعر حب عظيمة أكاد أكون لا أستحقها، أرغب في أن أفعل كما فعلتَ أنتَ، وأقف أمام مخبأ مستشفى كادوتا في هيوغو ذات الدهان الأبيض الناصع الذي ينمُّ عن نظافة رأيتها من نافذة القطار مرة واحدة فقط. لقد جعلتني تلك الرغبة، التي لم تفلح في صدها رماح ولا دروع، أرتجف، لكنني تحاملت على نفسي باستماتة وأنا أبكي بنحيب عالٍ.

لكن لم تكن تلك أول مرة أنتبه فيها لحالتي هذه. فعندما ألمحتَ لي، قبلها بسنوات داخل مبنى جامعة كيوتو، بأن أفعى صغيرة بيضاء تسكن داخلي، وقتها أخذتني الدهشة، فوقفتُ في مكاني بلا حركة. ولم أشعر قَطُّ بالخوف من مقلتيك بقدر ما شعرتُ به في ذلك الوقت. على الأرجح كانت كلمة منك لم تقلها بعد تفكير عميق، ولكنني كنتُ كمن كُشف كل ما في داخله تمامًا، وأحسست بالرغبة في الانكماش. وبفضل ذلك اختفت تمامًا مشاعر التقزز وقبضة الصدر التي كنتُ أشعر بها

بسبب رؤية عينات الأفاعي الحقيقية. وعندما نظرتُ بوجلٍ وخوف تجاهك لأتعرف على مشاعرك، لسببٍ مجهول، كنتَ تقف شاردًا شرودًا هائلًا. لم تفعل أي شيء قَطُّ، إلا أن وجهك بدا كأنه ينظر إلى الأفق البعيد، وقد وضعت بين شفتيك سيجارة لم تشعلها بعد. هل كنتُ واهمة؟ وسط كل الوجوه التي رأيتها لك، كان ذلك الوجه أكثرها خواء. لكن ذلك دام لحظة فقط، وعندما نظرتَ تجاهي عاد وجهك الهادئ، المعتادة عليه.

حتى ذلك الوقت لم أكن قد أمسكتُ شكل «الأنا» الأخرى التي داخلي بوضوح، ولكن إذ أعطيتَ أنتَ لها اسمًا، صرت أفكر فيها كأفعى صغيرة بيضاء. كتبتُ في تلك الليلة عن الأفعى الصغيرة البيضاء في يومياتي. ملأت إحدى صفحات اليوميات بتلك الحروف مرات ومرات بلا نهاية، «أفعى صغيرة بيضاء»، «أفعى صغيرة بيضاء»، «أفعى صغيرة بيضاء»، وعندها برزت داخل صدري هيئة أفعى صغيرة تشبه أدوات الزينة، تلتف في حلقات أنيقة متعددة من دون أي قدر من الترهُّل، وتصغر تلك الحلقات كلما عَلَت، ثم من تلك القمة تتجه إلى أعلى في خط مستقيم برأس مسنون يشبه المثقاب. إن تخيُّل ظهور الشيء المخيف والكريه، الذي

أحمله داخلي، نقيًّا نظيفًا هكذا، والذي ربما يحمل في جزء منه حزن المرأة المخلص، كان فيه على الأقل راحة نفسية. ما من شك أن الرب ذاته سوف ينظر إلى تلك الأفعى الصغيرة على أنها شيء أليم يُرثى له. لا ريب أنه سيعطف عليَّ. لقد وصل تفكيري إلى تلك الدرجة من الأنانية. ثم، منذ تلك الليلة، نضجتُ وأصبحتُ شريرة أكبر من ذي قبل.

أجل هذا ما حدث. ما دمتُ قد كتبت لك ما كتبته حتى الآن، فسأعترف بكل شيء. وأرجو منك ألا تغضب. إنها تلك الليلة شديدة الرياح في فندق أتامي قبل ثلاثة عشر عامًا، الليلة التي وضعنا أنا وأنت فيها أمنيتنا أن نكون شريرَين ونخدع جميع البشر في هذا العالم من أجل أن ننمي حبنا ونحرسه.

في تلك الليلة، بعد أن تبادلنا مباشرة العهد على الحب الجامح المجنون، لم يعد ثمة ما نقوله، فنمتُ على ظهري فوق المفرش الأبيض الذي استُخدِم النشا بكثرة في كيه، أتأمل بلا نهاية الظلام أمام عينَي، في صمت. ومن العجيب أنه لم يبقَ لديَّ انطباع عميق عن زمن مثل هذا الوقت الهادئ. تُرى هل كان ذلك وقتًا قصيرًا لا يزيد على خمس أو ست دقائق فقط؟ أم أننا بقينا هكذا غارقَين في الصمت لمدة نصف ساعة أو ساعة؟

وقتها شعرتُ بوحدة شديدة. نسيت أنك أنتَ أيضًا تنام جواري بوضعية نومي نفسها، وكنتُ أحتضن روحي فقط. تُرى لماذا سقطتُ في أعماق تلك الوحدة التي لا نجاة منها في وقت المفروض أنه غني بما لا مثيل له بالنسبة إلى كلينا، وقد نشأت لأول مرة جبهة التحالف السرية من أجل حبنا؟

لقد قررتَ في تلك الليلة أن تخدع كل البشر في هذا العالم. ولكنني أعتقد أنك فكرت وقتها ألا تخدعني أنا. ومع ذلك لم أفكر أنا وقتها قَطُّ أنك استثناء. لقد قررتُ أن أخدع جميع البشر في هذا العالم على مدى حياتي الطويلة؛ أخدع ميدوري، وأخدعك أنتَ، بل أخدع ذاتي نفسها. تلك هي طريقة الحياة الوحيدة التي وُهِبت لي. كانت تلك الفكرة تشتعل وتتمايل في أعماق روحي الوحيدة مثل نار جهنم.

كان يجب عليَّ التوقف بأي وسيلة عن التعلق بكادوتا، ذلك التعلق الذي لا يمكن التمييز إن كان حبًّا أم كراهية. والسبب أنني لم أستطع غفران خيانة كادوتا لي، مع أنها كانت زلة عابرة. ولم أكن أمانع في فعل أي شيء، وفي أن أصبح أي شيء، من أجل التوقف عن التعلق به. كنتُ في عذاب، وكنتُ أبحث بكل طاقتي عما يخنق عذابي هذا ويقضي عليه.

ثم، آه ما هذا الذي حدث؟! اليوم، بعد مرور ثلاثة عشر عامًا، لم يتغير شيء قَطُّ عن الوضع في تلك الليلة.

* * *

أن يُحِب المرءُ أو يُحَب، تلك هي نتائج خطايا الإنسان الحزين. حدث في العام الثاني أو الثالث لي في مدرسة البنات، في أثناء اختبار قواعد اللغة الإنجليزية، أن جاء سؤال في الفعل المبني للمعلوم والمبني للمجهول. وسط أفعال كثيرة مثل «يضرِب» و«يُضرَب»، «يَرى» و«يُرى»، كان فعلا «يُحِب» و«يُحَب» يلمعان ببريق متألق. وبينما كُنَّ جميعهن يحدِّقن إلى السؤال وهُنَّ يفكرن بعمق، جاءت من الخلف في سرية ـ تُرى مَن التي فعلت ذلك؟! ـ قطعة من الورق، ودارت بين الجميع، وعندما قرأتها وجدتُها قد كُتب عليها:

أترغبين في أن تُحِبي، أم أن تُحَبي؟

وكان تحت «أن تُحَبي» كثير من العلامات بأقلام حبر، ورصاص، وألوان زرقاء وحمراء، وضعتها كل واحدة حسب مزاجها، وعلى الجانب الآخر لم تُوضع علامة واحدة تحت اختيار «أن تُحِبي». ولم أكن أنا استثناء البتة، فقد وضعتُ علامة صغيرة تحت اختيار «أن تُحَبي». حتى في السادسة أو السابعة

عشرة من العمر، في حين لم أكن أعرف بعد بالتفصيل ما معنى أن أُحِب أو أن أُحَب بالضبط، كنتُ قد استطعت بالفعل تمييز السعادة التي سأحصل عليها من أن أُحَب.

ولكن وقت ذلك الاختبار، فتاة واحدة فقط، كانت تجلس في المقعد المجاور لمقعدي، أخذت مني تلك الورقة وألقت عليها نظرة سريعة، ثم ـ تقريبًا من دون أي حيرة أو تردد ـ وضعت بقلم رصاص غليظ علامة كبيرة واضحة تحت الخانة الخالية تمامًا من أي علامة، أي خانة «أن تُحِبي». وقتها، في اللحظة نفسها التي شعرتُ فيها بالكراهية تجاه سلوك تلك الفتاة الذي لا يقبل المساومة، شعرت بارتباك سأتذكره بوضوح إلى الأبد، ارتبكتُ كأنني هُوجمت فجأة من ثغرتي الوحيدة. كانت تلك الفتاة غير لافتة للأنظار، وذات انطباع كئيب، ولم تكن نتائجها الدراسية جيدة. كان شعرها بُنيًّا ودائمًا ما تكون وحيدة، ولا أدري كيف أصبحتْ بعد أن كبرت. لكنني اليوم وأنا أسجل هذه الرسالة، بعد مرور بضعة وعشرين عامًا، لسبب لا أعلمه، أتذكر، وبشكل متكرر، نظرات الوحدة لتلك الفتاة.

إن المرأة في نهاية حياتها، عندما تنام في هدوء وتولي وجهها لجدار الموت، ستكون إما

امرأة شبعت من سعادة أن تُحَب، وإما امرأة تجزم بالقول: «لقد أحبَبت، وإن كانت سعادتي قليلة». حسنًا، أيهما يعطي الرب الراحة الهادئة؟ ولكني أتساءل: هل ثمة امرأة في هذا العالم تستطيع أن تجزم بالقول أمام الرب إنها أحبَّت؟ كلَّا، لا أتساءل بل أنا متأكدة من وجودها. فربما تلك الفتاة خفيفة الشعر قد نضجت لتكون من القلة المختارة من النساء لذلك. من المؤكد أنها سترفع وجهها، بشعرٍ أشعث يهتز، وبجروحٍ تغطي جسدها كله، وملابس ممزقة ومهلهلة، وتقول بزهو: «أجل لقد أحبَبت». ومن المؤكد أنها ستقول ذلك ثم تلفظ أنفاسها الأخيرة.

آه، كم أكرهها وأود لو أستطيع الهرب منها! لكن نظرات تلك الفتاة تلاحقني كلما دفعتها بعيدًا، والآن لا أستطيع أن أفعل شيئًا. تُرى ما مشاعر القلق هذه التي لا يمكن احتمالها تجاه موتي بعد سويعات قليلة؟ يبدو أنني أعاقبُ الآن عقاب المرأة التي لا يمكنها تحمُّل معاناة أن تُحِب، وتسعى وراء سعادة أن تُحَب.

* * *

يا لها من لحظة حزينة، أن أكون مجبرة على أن أكتب لك هذه الرسالة، في نهاية حياة الثلاثة عشر عامًا التي عشتها معك في سعادة ومتعة!

لقد جاءت اللحظة الأخيرة التي كنتُ مؤمنة أنها ستأتي يومًا، لحظة أن اكتمل احتراق القارب الذي يقذف باللهب في عرض البحر، والذي لم يبرح في مخيلتي على الدوام. إنني مرهقة بدرجة لا تمكنني من مواصلة الحياة أكثر من ذلك. وأعتقد أنني بذلك استطعت أن أُظهر لك ذاتي الحقيقية، أُظهر لك جوهري الأصلي حقًّا. إن الحياة التي داخل وصية قصيرة تُقرأ في خمس عشرة أو عشرين دقيقة، هي حياتي أنا، سايكو الحقيقية، من دون زيف أو كذب.

سأقولها لك مرة أخرى في النهاية: إن حياة الثلاثة عشر عامًا كانت كأنها حلم. ولكنني كنتُ سعيدة على الدوام في ظل حبك الكبير. أسعد من أي إنسان في العالم.

عندما انتهيتُ من قراءة الرسائل الثلاث الموجهة إلى جوسكيه ميسوغي، كان الليل قد تعمَّق كثيرًا. أخرجتُ من درج المكتب مرة أخرى الرسالة التي وجهها إليَّ ميسوغي، وأعدتُ قراءتها.

حسنًا، أرجو منك أن تسمح لي بإضافة جملة واحدة، وهي أن اهتمامي برياضة

الصيد بدأ في الأصل منذ عدة سنوات، وخلافًا لما أنا عليه الآن من وحدة تامة بلا أهل ولا ونيس، كانت تلك الأيام مزدهرة في حياتي العامة والخاصة بلا أي إخفاق، وقد بدت بندقية الصيد وقتها شيئًا لا بديل عن وضعه فوق كتفي على الدوام.

في أثناء قراءتي مرارًا وتكرارًا هذا المحتوى الذي كتبه بمغزى في نهاية الرسالة، داخل صفحة الحروف الجميلة بأحد أنواع التفرُّد الذي يثير الارتياح، شعرتُ فجأة بشيء مظلم لا يمكن احتماله. إن استعرت طريقة سايكو في التشبيه، ربما كانت تلك هي الأفعى التي تسكن داخل الشخص المُسمَّى «ميسوغي».

نهضتُ فجأة من فوق مقعدي وتوجهتُ إلى النافذة الشمالية في غرفة المكتب، وتأملت ظلام الليل في شهر مارس الذي تومض فيه الأضواء الزرقاء لقطار الضواحي في مكان بعيد. تُرى ماذا تعني تلك الرسائل الثلاث بالنسبة إلى ميسوغي؟ ماذا يقول عما عرفه من خلال تلك الرسائل الثلاث؟ ألم يكن الأمر أنه لم يحصل على أي حقيقة جديدة؟ ألم يكن يعرف منذ زمن بعيد طبيعة أفعى ميدوري وطبيعة أفعى سايكو؟

بقيتُ واقفًا بجوار النافذة بلا حراك إلى ما لا نهاية، تاركًا هواء الليل البارد يضرب خدَّي.

ويبدو أن جزءًا من حالتي النفسية قد سكر قليلًا. وعندما وضعت يدَي على حلق النافذة، اختلستُ النظر بعض الوقت من دون سبب إلى الظلام القابع في الحديقة الداخلية الضيقة، التي تنبت فيها أشجار واقفة تحت النافذة مباشرة، وكأنها بحق ما وصفه ميسوغي بقول: «ضفاف نهر أبيض»!

المؤلف

ولد ياسوشي إينويه في عام ١٩٠٧. عمل صحفيًّا ومحررًا أدبيًّا لسنوات عديدة، ولم يبدأ حياته الإبداعية الغزيرة مؤلِّفًا إلا في عام ١٩٤٩. نشر خمسين رواية ومائة وخمسين قصة قصيرة، وأصبح إحدى الشخصيات الأدبية الرئيسية في اليابان. مُنح وسام الاستحقاق الثقافي الياباني، ووسام الفروسية للكُتاب والفنانين والباحثين، ووسام الثقافة، وهو أعلى وسام تكريم يُمنح للجدارة الفنية في اليابان. وتُوفِّي ياسوشي إينويه في عام ١٩٩١.

المترجم

ميسرة عفيفي، مترجم مصري، ولد في القاهرة ويعيش في اليابان منذ عام ١٩٩٦. ترجم وكتب عددًا من الدراسات والمحاضرات والأبحاث والقصص القصيرة والمقالات. ترجم روايات لهاروكي موراكامي وتاتسو هوري وأوسامو دازاي، وصدرت له عن دار الكرمة رائعة أوجاي موري: «الإوزة البرية».